الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة يحيى فارس – المدية –

كلية الآداب واللغات

قسم :اللغة والأدب العربي

الأبعاد التداولية في تفسير القرآن الكريم

أسباب النزول أنموذجا

مذكّرة مكملة لنيل شهادة الماستر في الأدب العربي

تخصص: نقد أدبي حديث ومعاصر

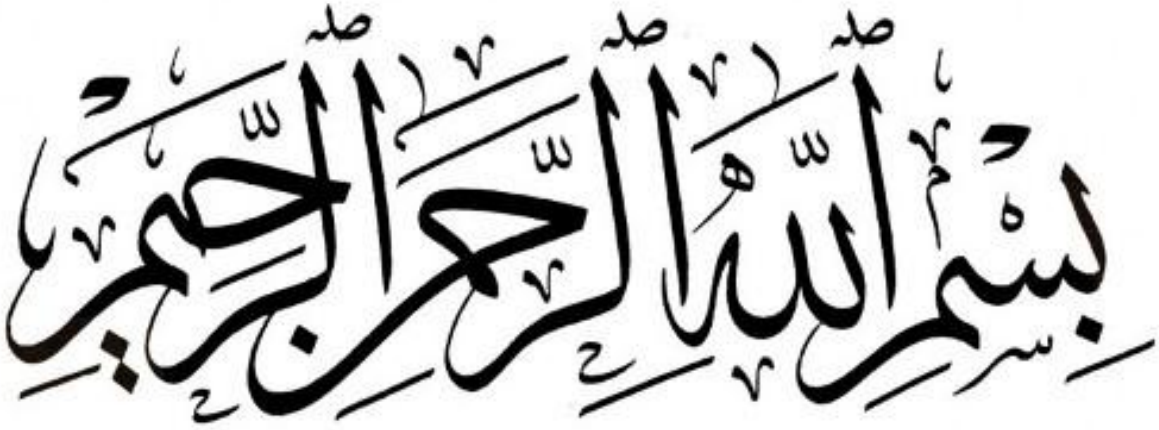
إعداد الطالبة:

زاويدي هاجر

إشراف الأستاذ:

عبابسي ميلود

السنة الجامعية: 2023-2024


بسم الله الرحمن الرحيم

{قُلْ لَوْ كَانَ البَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا} الكهف 109

شكر وعرفان

إذا كان الشكر مديما للنعمة وسببا في زيادة الرحمة ودليلا على طيب الخاطر وصفاء الجوهر، فإنني أشكر الله عز وجل القائل: "فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون" البقرة 125.

شكرا على ما أولاني من نعمه وكرمه، ولا يسعني بعد هذا إلا أن أتقدم بأسمى عبارات الشكر، إلى ذي الفضل أستاذي المحترم عبابسي ميلود جزاه الله خيرا على ما بذله من جهد في إشرافه على هذه المذكرة، وما أولانيه من عناية كانت سندا وضياء لي حتى رأى هذا البحث النور، كما أتوجه بجزيل الشكر والعرفان إلى لجنة مناقشة هذه المذكرة على تجشمها عناء قراءتها وتصويب الأخطاء الواردة فيها إثراء للموضوع وتقويما.

وما التوفيق إلا بالله العلي العظيم عليه توكلنا وإليه ننيب.

إهداء

إلى من كان يأمل أن يشهد آخر أوراق هذا البحث لكنه رحل... تُرى هل رحل؟

إلى أبي تغمده الله بواسع رحمته.

إلى التي كتبت تاريخ ميلادي، ورسمت مستقبل وجودي بأبجدية الرعاية والدعاء...إلى أمي أطال الله عمرها.

إلى أخوي وأختي وكل عائلتي حفظهم الله.

إلى صديقاتي الغاليات... وتلميذاتي المشاغبات.

إلى كل هؤلاء أهدي هذا الإشراق من التجلي.

مقدمة

علم التفسير هو علم يدرس كتاب الله غايته أن يتوصل العبد إلى المراد من الخطاب الربّاني، ولما كان المفسر للقرآن الكريم والمتدبّر له لا يستطيع الاستغناء عن أسباب نزوله ، فمعرفة أسباب النزول مهمة جدا لفوائدها الجمّة:

- بيان أنّ القرآن نزل من الله تعالى وذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم يُسأل عن شيء فيتوقف عن الجواب حتّى ينزل عليه الوحي ، أو يخفى الأمر الواقع فينزل الوحي مبينا له (كسؤال اليهود عن الروح).
- بيان عناية الله تعالى برسوله صلى الله عليه وسلم في الدفاع عنه (آيات الإفك).
- بيان عناية الله تعالى بعباده في تفريج كرباتهم وحل مشكلاتهم (آية التيمم).
- فهم الآية على الوجه الصحيح كقوله تعالى:{ إنّ الصفا والمروة من شعائر الله ، فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطّوف بهما ومن تطوّع خيرا فإنّ الله شاكر عليم }، بأن يكون من القسم المباح ونفي التحرج بالإمساك عنه.
- هذا أهم ما أقرته كتب علوم القرآن. وبما أن البحث يتناول أسباب النزول دراسة تداولية، هذه الأخيرة هي مبحث لساني جديد لكن البحث فيها يمكن أن يؤرخ له منذ القديم ،حيث عرف العلماء العرب في العصور القديمة فكرة التداولية بمفهومها العلمي الحديث وإن لم يؤصّلوا له بلفظه ، فربط السّكاكي مثلا تراكيب الكلام بالإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ،وهنا يمكن أن نقول أن النظرة التداولية هي تلك النظرة التي تقوم على

البحث في العلاقات التفاعلية بين النص وبين منتجه من جهة ، وبينه وبين متلقيه من جهة أخرى ، مع مراعاة مختلف العناصر المقامية المؤثرة في هذه العلاقات.

وتكمن أهمية هذا الموضوع في كونه يطمح إلى دراسة أسباب النزول ويسعى إلى إبراز دورها من منظور تداولي محاولا تتبّع أبعاده ومقاصده ، ومن ثم محاولة رصدها والكشف عنها.

أما عن سبب اختيارنا لهذا الموضوع فيكمن في رغبتنا في استقراء وتعليل لكل ماله علاقة بهذا المجال الخصب للوصول إلى الهدف المرجو وهو إزالة الغموض والتعمق أكثر في علم أسباب النزول وأهميته في فهم القرآن الكريم هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ربط هذا العلم الهام بالدرس اللساني التداولي.

وعليه فالبحث يسعى إلى الإجابة عن الإشكالية الرئيسية الآتية:

- **ما مدى نجاعة الدّراسة التداولية بظواهرها وقضاياها في فهم النّص القرآني اعتمادا على عنصر غير نصي والمتمثل في أسباب النزول؟**

بالإضافة إلى جملة من الإشكالات الفرعية منها:

- ماهية التداولية؟
- كيف نشأت التداولية وما علاقتها بالعلوم الأخرى؟
- هل للتداولية جذور في التراث العربي؟
- ما الفرق بين التفسير والتأويل؟

- ما فوائد أسباب النزول في الدرس التفسيري؟

ومحاولة منّا الإجابة عن الإشكالية المطروحة سالفا وغيرها، اقترحنا خطة تتكون من مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة.

أمّا الفصل الأول فجاء نظريا ووسمناه بـ: "التداولية بين الدرس الغربي والعربي"، جعلناه في مبحثين اثنين:

المبحث الأول عنوناه بـ "مفهوم التداولية في الدراسات الغربية" تناولنا فيه:

- تعريف التداوليه لغة واصطلاحا.
- نشأة التداولية وعلاقتها بالعلوم الأخرى.
- النظرية السياقية وعلاقتها بالتداولية.

أما المبحث الثاني فكان تحت عنوان "مفهوم التداولية في الدراسات العربية"جاء فيه:

- تعريف التداولية لغة واصطلاحا.
- جذور التداولية في التراث العربي.
- السياق المقامي.

وفي الفصل الثاني كانت الدراسة نظرية أيضا معنونة بـ: "أسباب النزول الماهية والوظيفة التفسيرية" ، وجاء هو الآخر في مبحثين:

المبحث الأوّل عنوناه بـ "ماهية أسباب النزول" جاء فيه:

- تعريف أسباب النزول لغة واصطلاحا.

- نشأة أسباب النزول وأنواعه.

المبحث الثاني سلطنا الضوء فيه على فاعلية أسباب النزول في الدرس التفسيري، تحدثنا فيه عن:

- تعريف التفسير لغة واصطلاحا.
- الفرق بين التفسير والفهم والتأويل.
- أنواع التفسير ومناهجه
- فوائد أسباب النزول في الدرس التفسيري.

أما الفصل الثالث فارتأينا أن يكون تطبيقيا عنوناه بـ " مظاهر فاعلية أسباب النزول في فهم القرآن الكريم عند المفسرين"، وقد تمّ فيه تقديم نماذج من الملفوظ القرآني، ومعاينة تغيّر دلالة هذا الملفوظ في علاقته بالسياق المقامي، وكان ذلك في مبحثين تطبيقيين :

المبحث الأول: أسباب النزول والمقاصد القرآنية.

المبحث الثاني: البعد الحجاجي لأسباب النزول.

وذيلنا كل ذلك بخاتمة تضمّ نتائج البحث.

ولأنّ المدونة واسعة جدا، فقد كان من الضروري انتقاء بعض الملفوظات القرآنية، ورصد مساهمة السياق في تحديد دلالتها بالاستعانة بالمنهج الوصفي التحليلي وهو المنهج المناسب لهذه الدراسة العلمية، والذي يمكّننا من استقصاء الحقائق بوصفها وتحليلها وتفسيرها،

بالإضافة إلى اعتمادنا على المنهج التاريخي الذي سيساعد هو الآخر في تتبع مسار الدرس التداولي.

وحسب قراءتنا لم نجد دراسة تتطرق إلى موضوع أسباب النزول لسانيا ماعدا دراسة بسام الجمل بعنوان (أسباب النزول)، بالإضافة إلى بعض الإشارات والتلميحات ضمن دراسات لمواضيع تداولية مختلفة.

ولذلك كان لابدّ من الاستعانة بمجموعة من الكتب التي تحدّثت عن ذلك منها:

- أسباب النزول لـ: بسام الجمل.
- أثر السياق في فهم النص القرآني لـ: عبد الرحمن بودرع.
- تفسير الطبري لـ: الإمام الطبري.
- التحرير والتنوير لـ: الإمام ابن عاشور.
- التداولية عند العرب لـ: مسعود صحراوي.

ولأنّ المدونة واسعة ولها قدسيتها الخاصة، فقد واجهتنا بعض الصعوبات نلخصها في:

- عدم وجود دراسات مماثلة لدراستنا والاقتداء بمنهجها إلا ما تشابه منها في بعض النقاط تمّ جمعها والأخذ بها.
- خصوصية المدونة (القرآن الكريم) وكيفية تطبيق آليات المنهج التداولي عليها، لذلك كان لابدّ من العودة إلى آراء المفسرين وبشكل خاص الإمام الطبري والإمام ابن عاشور.

وفي الختام نشكر من كان له الفضل بعد المولى عز وجل في إثراء هذا الجهد بنصائحه وملاحظاته الدقيقة، الأستاذ المشرف ميلود عبابسي، نعم الأستاذ والمشرف، دون أن ننسى اللجنة العلمية التي سوف تناقش العمل إذ نشكر الأستاذين سلفا على جهودهما، وما توفيقي إلا بالله.

الفصل الأول: التداولية بين الدرس الغربي والعربي.

تعد اللغة ظاهرة اجتماعية، فهي إحدى وسائل التفاهم بين النّاس داخل المجتمع، مرتبطة أشد الارتباط بثقافة مستعمليها، هذه الثقافة التي لايمكن تحليلها بحصر المواقف الاجتماعية المختلفة والمسماة سياقات مقامية، ففكرة المقام هذه هي الأساس الذي يبنى عليه الشق أو الوجه الاجتماعي للّغة، وهو الوجه الذي تتمثل فيه الأحداث والظروف والعلاقات التي تسود ساعة أداء المقال[1].

إنّ هذا التعريف – وإن كان بسيطا– يقودنا إلى التسليم بأهمية المقام في تأدية اللغة، كما أنّ الحديث في مسألة وظيفة اللغة يجب أن يُتجاوز فيها مستوى الاتّصال للقيام بمهمات جوهريّة من مثل: صياغة المعلومات، وإبلاغها، ومن ثمّة تنتقل وظيفة اللّغة في جوهرها من التّواصل إلى تمثيل المعرفة، وبرمجة المعلومة، وإبلاغها، وقد كان ل (أوستين)[2] التفاته ثمينة في نظرية اللغة، حين رأى أنّها " ليست أداة أو وسيلة للتخاطب والتفاهم والتواصل فحسب، وإنّما اللغة وسيلتنا للتّأثير في العالم وتغيير سلوك الإنسان من خلال مواقف كلية "[3]. وعليه وجب علينا أن نسلّم بفكرة الإعراض عن اختصار اللغة في نظام ترميزي إشاري شفاف، مبدؤه التواصل الحرفي للّغة مادام استعمالها ممثلا في إنتاج الكلمات والجمل، وفهمها يتطلب معارف غير لغوية، ويستلزم عمليات استنباطية (دراسات حديثة) تقوم أساسا على استراتيجية المؤوّل والملابسات السياقية للعملية التواصلية. وممّا هو معلوم ومتعارف عليه أنّ العلوم

[1]- انظر تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط1 1994، ص337.
[2]- جون لانجشو جيه إل أوستن (1960/1911) فيلسوف لغة بريطاني، يعرف بأنّه واضع نظرية أفعال الكلام والتي تهتم بكيفية إنجاز الأفعال بالكلمات.
[3]- أوستين، نظرية الأفعال الكلامية، تر عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، دط 1991، ص6.

سواء القديمة أم الحديثة، العربية أم الغربية، لم تنشأ دفعة واحدة بكلّ مبادئها وأسسها ومجالاتها، بل نشأت عبر مراحل، إلى أن وصلت إلى ماهي عليه من النضج والكمال.

وعلى هذا الأساس، وانطلاقا ممّا تقدّم، يعتبر السياق أحد المحاور الأساسية التي أفضى الحوار بصددها إلى إثارة الدراسات اللغوية واللسانية في العقود الأخيرة من القرن العشرين، والتي تمخضت بالدرس التداولي القائم على النظرة التداولية. والمقصود بالنظرة التداولية، تلك النظرة التي تقوم على البحث في العلاقات التفاعلية بين النص ومنتجه من جهة، وبينه وبين متلقيه من جهة أخرى، مع مراعاة العناصر المقامية المؤثرة في هذه العلاقات.

وبما أنّ تحديد المفهوم له أهمية كبيرة في البحث العلمي، إذ يعتبر الخطوة الأساس والمهمة الأولى للمعرفة العلمية، والتزاما بهذه الخطوة المنهجية، وتأسيسا عليها، لابدّ أن نحدد مفهوم التداولية باعتباره محور الدراسة، وكذلك مجموعة من المفاهيم التي تدور في فلك هذه الأخيرة.

المبحث الأوّل: مفهوم التداولية في الدراسات الغربية.

1- تعريف التداولية:

1.1- لغة: عُرّفت التداولية في القاموس الموسوعي للتداولية: " بأنّها دراسة استعمال اللغة مقابل دراسة النظام اللّساني الذي تعنى به تحديدا اللّسانيات، وإذا تحدّثنا عن استعمال اللغة فلأنّ هذا الاستعمال ليس محايدا من حيث تأثيراته في عملية التواصل، ولا في النظام اللغوي في حدّ ذاته"[1].

وقد ورد في موسوعة كمبريدج تعريف لمصطلح التداولية والذي يقابله في اللغة الإنجليزية(Pragmatics) جاء فيه:

«Pragmatics is the study of an ability of language users to pair sentences with they would be appropriate»[2].

أي أنّ التداولية هي دراسة الإمكانيات اللغوية لدى مستعملي اللغة في جعل الجمل أكثر ملاءمة للاستعمال (في التواصل).

أمّا في اللغة الفرنسية فقد جاء تعريف التداولية على النحو الآتي:

«Pragmatique : domaine qui étudie l'usage qui peuvent faire de la langue, des interlocuteurs en situation communication»[3].

[1]- جاك موشلير-آن ريبول، القاموس الموسوعي للتداوليّة، تر:عزالدين المجدوب وآخرون، دار سيناترا،تونس،د ط 2010،ص21.

[2]- Stephen.c.Levenson, Pragmatics, Cambridge, university press, third Edition, p25.

[3]- Petit la rousse, libraire, la rousse, paris, France, Edition 1980, p734.

بمعنى التداولية هي المجال –أو بمعنى أدق هي العلم– الذي يدرس الاستعمال اللغوي بين المتكلمين ضمن عملية التواصل.

2.1– اصطلاحا: يبدو مصطلح تداوليات (Pragmaique) على درجة كبيرة من الغموض ما يجعله مستعصيا على الضبط الدقيق، إذ ما انفك هذا المصطلح يقترن في اللغة الفرنسية بالمعنيين: محسوس وملائم الحقيقة، أمّا في اللغة الإنجليزية بوصفها اللغة التي كتبت بها غالبية النصوص المؤسسة للبحث التداولي، فإنّ مصطلح (Pragmatic) يدلّ في الغالب الأعم على ما له علاقة بالأفعال والوقائع الحقيقية[1]. وتأسيسا على المفهوم العام لـ (Pragmatique)في الدرس اللساني الغربي الحديث، فالتداولية هي دراسة اللغة حالَ الاستعمال؛ أي حينما تكون متداولة بين مستخدميها.

ولعل من أهم الصعوبات التي تصادف التعريف بالتداولية، عدم استقرارها على مصطلح يشمل مقولاتها ومجالاتها العديدة. كما تجدر الإشارة ههنا إلى أنّه إذا ما قمنا ببحث عن تعريف للتداولية، فإننا لن نجد تعريفا شاملا وموحدا لها، وذلك للأسباب الآتية :

أولا: لأننا لا يمكن أن نبرر التعريف إلا من خلال تطبيقه.

ثانيا: أن التعريف يضع البحث في إطار محدد ويضيقه في بعض الأحيان.

ثالثا: أن هناك اتجاهات عديدة تحاول تعريف التداولية، ومن ثم يصعب معها الوصول إلى صيغة موحدة.

[1]-انظر فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، تر صابر الحباشة، دار الحوار، سورية، ط1 2007، ص17.

لهذه الأسباب وغيرها كانت كل محاولات التعريف من قبل الدارسين لا تنسجم فيما بينها. **فـ: موريس Morris** مثلا –يعود له الفضل في إدخال مصطلح(Pragmatique) في معجم اللسانيات الحديثة– يعرّف التداولية بأنّها: " دراسة العلاقة الموجودة بين العلامات ومستعمليها"[1]، وقد اعتبرها جزءا من ثلاثة أجزاء من السميائية التي تعالج العلاقة بين العلامات ومستعملي هذه العلامات، أو مفسّريها (متكلّم–سامع–قارئ–كاتب...)، وهذه الأجزاء هي:

- علم التراكيبSyntaxe الذي يعالج العلاقة الشكلية النحوية بين العلامات.
- علم الدلالةSémantique ويدرس علاقة العلامات بالأشياء التي تحيل عليها في الواقع.
- التداوليات Pragmatique وتدرس –حسب تعريف موريس– علاقة العلامات ومفسريها[2].

في الواقع إنّ هذه النظرة التي يحملها **موريس** للتداولية تنبّئنا بمدى وفاء هذا التّصور للنظام اللساني عامة ونظرية العلامة على وجه الخصوص، ومن ثمة فإنّ هذا التعريف واسع وغير محدد للتداولية، إذ يتعدى المجال اللساني إلى السميائي.

يعرّف كل من **آن ماري دييرAnne Marie** و**فرانسوا ريكانتيFrançois Récanti** التداولية بقولهما: " التداولية هي دراسة استعمال اللغة في الخطاب، شاهدة في ذلك على

[1]- المرجع السابق، ص45.
[2]- انظر نحلة محمود أحمد ، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، مصر، ط1 2002، ص52.

مقدرتها الخطابية، فهي إذن تهتم بالمعنى كالدلالة وبعض الأشكال اللسانية التي لا يتحدّد معناها إلا من خلال استعمالها"[1].

أمّا **فرانسيس جاك Francise Jaque** عرّفتها بقولها: " تتطرق التداولية إلى اللغة كظاهرة خطابية وتواصلية واجتماعية معا، فاللغة من هنا استعمال بين شخصين للعلامات استنادا إلى قواعد موزّعة تخضع لشروط إمكانية الخطاب"[2].

ومن جهته **إيلوار Eluard** يقدّم مفهوما أوسع للتداولية "فهي إطار معرفي يجمع مجموعة من المقاربات تشترك عند معالجتها للقضايا اللّغوية في الاهتمام بثلاثة معطيات لها دور فعّال في توجيه التبادل الكلامي وهي:

1. المتكلمون (المخاطَب والمخاطِب)

2. السياق (الحال أو المقام)

3. الاستعمالات العادية للكلام أي الاستعمال العفوي للكلام."[3]

من هذا التعريف يمكن أن نلاحظ أن الجانب التداولي يضم دور المتلقي والمقام وغاية النّص ونوع المعلومات المتطرق إليها وسمات التفاعل وكيفية التواصل والغرض منه. وعليه فالتداولية لا تهتم بدراسة البنية اللغوية بعيدا عن الاستعمال، بل إنّ مفهومها يضم كلا من البنية اللغوية وعلاقتها بظروف الاستعمال وكذا قواعد التخاطب، إنّها تهتم بالمتكلم والمستمع واللّفظ وظروف وملابسات الخطاب.

---

[1]- بوقرة نعمان ، المدارس اللسانية المعاصرة، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، د ط 2003، ص166.

[2]- فرانسواز أرمينيكو، المقاربة التداولية، تر سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، الرباط، المغرب، ط1 1986،ص08.

[3]– صحراوي مسعود، التداولية عند العلماء العرب، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1 2005، ص16.

وكآخر تعريف نورده للتداولية هو لـ **فرنسواز أرمينيكو Fançoise Arminico** فيصفها "بأنّها درس جديد وغزير إلاّ أنّه لا يمتلك حدودا واضحة ... تقع التداولية كأثر لدروس حيوية في مفترق طرق الأبحاث الفلسفية واللّسانية، إلاّ أنّها غير مألوفة حاليا"[1].

من خلال هذا التعريف نستنتج أنّ مفهوم التداولية كان محط اهتمام المناطقة والسميائيين والفلاسفة والسوسيولوجيين وعلماء التواصل واللسانيين، وبذلك فهي على مستوى التحليل لا يمكن أن نصنفها في أيّ من المستويات، ولا تدرس جانبا من اللغة، بل تستوعبها جميعا لأنّها تتداخل معها.

2- علاقة التداولية بالعلوم الأخرى:

رغم أنّ اللسانيات هي أقرب حقل معرفي إلى التداولية، إلاّ أنّها لا تنحصر في ذلك فقط، بل تتعداه إلى الحقول المعرفية الأخرى التي تشترك وتتداخل معها في بعض الأسس المعرفية.

1.2- علاقة التداولية بالفلسفة: وبالتحديد **الفلسفة التحليلية**، إذ تُعرّف هذه الأخيرة على أنّها "عملية يراد بها اكتشاف عناصر موضوع معيّن من أجل غرض خاص، وهذا يعني أنّ الغرض من التحليل هو تقليل درجة الغموض في المركبات بتوجيه الانتباه إلى الأجزاء المتعدّدة التي تتركب منها"[2]، وقد انبثق من رحم هذه الفلسفة ظاهرة الأفعال الكلامية التي تعدّ لب الدرس التداولي[3]. وفي نفس المجال نجد فلسفة **بول غرايس Grice** التي انبثق منها

[1]- فرنسواز أرمينيكو، المقاربة التداولية، تر:سعيد علوش، مرجع سابق، ص07.
[2]- ناصر إبراهيم، فلسفات التربية، دار وائل للتوزيع والنشر، عمان، الأردن، ط2 2004، ص287.
[3]- صحراوي مسعود، التداولية عند العلماء العرب، مرجع سابق، ص16.

مفهوم **نظرية المحادثة** في أشهر مقال نشره عام 1975 ويسجل في هذا المقال تطورا في الدلالة غير الطبيعية، ويصوغ مقاربته لإنتاج الجمل وتأويلها، وقد أدخل مفهومين مهمين هما: الاستلزام الخطابي ومبدأ التعاون، ففي الأوّل ميّز بين الجملة والقول، وفي الثاني يفترض أنّ المتخاطبين المساهمين في محادثة مشتركة يحترمون مبدأ التعاون[1]. دون أن ننسى **الفلسفة البراغماتية** وهي اتجاه تجريبي عملي، يعتمد على الواقع الخارجي ويهتم به، فالفيلسوف البراغماتي يتجه إلى دراسة ماهو متعيّن وحقيقي، ومن أجل اتباع طريقة تساعد على تحقيق الأفكار والمعاني في الواقع الخارجي، فهي تسعى لمعرفة ما هو زائف وما هو حقيقي من المعاني بالاعتماد على معيار الصدق. ومعنى الصدق عند البراغماتيين مرتبط بالنجاح العملي، أو ما يترجم إلى سلوك ناجح. يقول جيمس: "إنّه ينبغي عليك أن تستخرج من كل لفظ قيمته الفورية الفعلية، وأن تضعه موضع العمل في نطاق مجرى خبرتك، بحيث تكون قيمة الفكرة مرتبطة بنجاح السلوك الذي يؤدّيه الإنسان بناء على اعتقاده في صحتها"[2].

2.2- علاقة التداولية بالعلوم المعرفية[3]: توافقت نشأة التداولية مع نشأة بعض العلوم المعرفية، وقد جرى التفكير في الذكاء الاصطناعي[4] في سياق عقلية جديدة هي العقلية التي

---

[1]- انظر: جاك موشلر-آن ريبول، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، تر سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1 2003، ص ص54-55.

[2]- فضل صلاح، بلاغة الخطاب وعلم النّص، دار الكتاب اللبناني، لبنان، ط1 2004، ص24.

[3]- العلوم المعرفية هي كل العلوم التي تجعل المعرفة موضوعا لها، وتنصنّف إلى:1-أساسية وتتمثل في: الفلسفة،اللسانيات،علم النفس المعرفي، العلوم العصبية، والذكاء الاصطناعي ويقصد بهذا الأخير كل محاولة فهم طبيعة الذكاء الإنساني عن طريق عمل= برامج للحاسب الآلي، قادرعلى محاكاة السلوك الإنساني المتسم بالذكاء كحل مسألة أو التوصل إلى قرار.2-علوم ثانوية وهي الأنثروبولوجيا المعرفية أو علم الاجتماع المعرفي.

[4]- انظر:النيفر نورالدين، فلسفة اللغة واللّسانيات، مؤسسة أبو وجدان للطبع والنشر، تونس، ط1 1993، ص10.

مكنت من ظهور العلوم المعرفية، ففي أمريكا على وجه الخصوص، اتخذ علم النفس منذ بداية القرن العشرين وجهة سلوكية تتخذ من السلوك الظاهر أساسا للدراسة، حيث يكتفي بملاحظته له –خاصة عند الحيوان– للوصول إلى التعميم في شأن المعطيات النفسية.

ثمّ ظهرت العلوم المعرفية ردّا على التيار السلوكي، حيث تسهم التداولية في برنامج البحث الذي حدّدته العلوم المعرفية، والذي يمكن إجماله في توضيح أشغال العقل والدماغ، وبيان كيف أنّ العقل البشري خصوصا يكتسب معارف ويطورها، ويستعملها اعتمادا من جملة ما يعتمد على الحالة الذهنية[1]. ومن ذلك **نظرية الملاءمة** التي أرسى معالمها العالم البريطاني **ولسن دريدر D Wilson** والفرنسي **دان سبيربر D Sperper**، وتأتي أهميتها التداولية من أمرين:

- أنّها تنتمي إلى العلوم المعرفية الإدراكية.
- أنّها ولأول مرة منذ ظهور الأفكار والمفاهيم التداولية تبين وبدقة موقعها من اللسانيات، وخصوصا موقعها من علم التراكيب.

فنظرية الملاءمة تفسر الملفوظات وظواهرها البنوية المقامية المختلفة، وتعد في نفس الوقت نظرية إدراكية، والسبب أنّها تدمج بين مشروعين معرفيين، الأوّل منهما مستمد من علم النفس، والثاني من مجال فلسفة اللغة[2].

[1]- انظر: جاك موشلر-آن ريبول، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، مرجع سابق، ص ص27-28.
[2]- انظر: صحراوي مسعود ، التداولية عند العلماء العرب، مرجع سابق، ص ص36-37.

3.2- علاقة التداولية بتحليل الخطاب: تتداخل التداولية مع تحليل الخطاب من ناحية المقام، فالمؤلفات والأبحاث حاولت أن تجد في رحابها أجوبة لكثير من الأسئلة مثل: ماذا نصنع حين نتكلم؟ ماذا نقول بالضبط حين نتكلم؟ وماذا علينا أن نعلم حين يرتفع الإبهام عن جملة أو أخرى؟ والهدف من كلّ هذا هو كيف يمكننا أن نجعل الخطاب رسالة تواصلية ناجحة[1].

4.2- علاقة التداولية باللسانيات: شاع عن التداولية أنّها سلّة لمهملات اللسانيات، وأنّها مكوّن من مكونات البنوية، وأنّها تعدّ نظرية للخطاب، وقد أثبتت التداولية خطأ هذه التصورات، فهي تقوم بإزالة الغموض من عناصر التواصل اللغوي، وشرح طرق الاستدلال، ومعالجة الملفوظات، وهذه الفضايا ليست من اهتمامات اللسانيات، إنّما هي تشبه أن تكون مرحلة وسيطة بين المعارف اللغوية والمعارف الموسوعية، فهي تستمد من رافدين مهمين هما:

الرافد المعرفي والرافد التواصلي[2].

وليست التداولية مكونا من مكونات اللسانيات البنوية، فإذا كانت اللسانيات البنوية توصف بالبعد عن الأحداث الكلامية الحقيقية في الواقع المجسد، أي تكتفي بوصف الظاهرة فقط ولا تتعدّها، فإنّ التداولية توجد آليات تحليل عديدة لتفسير الظاهرة، وتعيين المرجع، وهذا ما يجعل للتداولية بعض المميزات التي تميزها عن اللّسانيات البنوية، كالاتصال المباشر

[1] -انظر: شنان قويدر، التداولية في الفكر الأنجلوساكسوني، المنشأ الفلسفي والمآل اللساني، ملتقى علم النص، مجلة اللغة والأدب، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، جانفي 2006، العدد 17، ص22.

[2]- انظر:صحراوي مسعود، التداولية عند العلماء العرب، مرجع سابق، ص ص 27-28.

ومباشرة قضايا العالم الخارجي[1]، ولذلك نجد فكرة المقام قد تطورت لدى اللّسانيين المحدثين، وبخاصة عند أصحاب مدرسة لندن، حيث ركّز **جون فيرث J Firth** وتلاميذه على دور المقام في تحديد المعنى والاستعمال الفعلي للكلمة، وقد اهتم اللّسانيون التداوليون بالمقام، فسميت على إثر ذلك التداولية بالمقامية[2].

5.2- علاقة التداولية بالمستويات اللّغوية (النحو-الدّلالة): لاتنطوي التداولية ضمن أي مستوى من المستويات اللغوية، إلاّ أنها تتداخل معها في بعض الجوانب[3]، ولكي يتضح ذلك أكثر، نستعرض معا ما قدّمه **أوستين Austin** كتمييز بين التداولية والنحو والدّلالة نحصرها فيما يلي:

- يُعنى النحو بتوضيح الشروط المحدّدة والقواعد التي تتضمن صياغة الأقوال الجديدة، وتهتم الدلالة بالشروط التي تجعل الأقوال مفهومة وقابلة للتفسير، بينما التداولية هي العلم الذي يُعنى بالشروط اللازمة لأن تكون الأقوال مقبولة وملائمة بالموقف التواصلي الذي يتحدّث فيه المتكلّم.

- إذا كانت الألسنية مع **دوسوسير** والبنوية مع **رولان بارث** و **ليفي ستراوس** و**ميشال فوكو** والشكلانية الروسية مع **باختين** و**تودوروف** و**جاكبسون** و**بروب** تنظر إلى اللغة كبناء وكعلاقات داخلية لا علاقة لها بالمتكلم، وتتناولها في بعدها التزامني لا التعاقبي التاريخي، فإنّ التداولية تعيد الاعتبار للمتكلم وللكلام، وهذا الذي أُقْصِيَ من قبل **دوسوسير** من ساحة

[1]- انظرالمرجع السابق، ص29.

[2]- بعلي حفناوي، التداولية البراغماتية الجديدة، خطاب ما بعد الحداثة، ملتقى علم النص، مجلة اللغة والأدب، مرجع سابق، ص54.

[3]- انظر شنان قويدر، التداولية في الفكر الأنجلوساكسوني، مرجع سابق، ص22.

البحث لصالح النظام، والذي رفض الكلام الفردي المتحقق في الخارج بحجّة أنّه متغير من شخص إلى آخر.

تضع التداولية المبادئ السوسيرية السابقة موضوع جدال وتساؤل، وتنفي ببساطة أسبقية الاستعمال الوصفي والتّمثيلي للّغة، وأسبقية النظام والبنية على الاستعمال، وأولوية اللّغة على الكلام، والقدرة على الإنجاز[1]. "وبذلك فالتداولية تعيد الاعتبار لسياق الكلام، أي بُعد اللغة الخارجي، وبالتالي أولوية الإنجاز على المفهوم والتحقق على البناء"[2].

– أمّا الفرق بين الدلالة والتداولية: "فإنّ علم الدلالة يشارك التداولية في دراسة المعنى ، على خلاف العناية ببعض مستوياته، فإذا كانت الدلالة تهتم بالمعنى كعلاقة ثنائية بين الشكل ومعناه، فإنّ التداولية يمكن النظرإليها على أنّها علاقة ثلاثية بين المتكلم والمعنى واللفظ، وبمجرد وجود المتكلم في الصيغة فمن الصعب استبعاد المخاطب، لأنّ ما لفظه المتكلم يستمد معناه بفضل نيته في إحداث تأثير معين على المخاطب، كما يستدعي السياق والظروف"[3].

3– نشأة التداولية وتطورها:

إنّ التعرض لنشأة النظرية التّداولية ليس بالأمر الهيّن، لاسيما أنّها مدينة لعدد من التيارات الفلسفية ولطبيعتها التي تمس الواقع المعيش اليومي، فمفهوم التداولية من أهم المفاهيم الحديثة التي شدت انتباه الباحثين والدّارسين، "حيث استعمل المصطلح في مجال الدّراسات

[1]- انظر: فرانسواز أرمينيكو، المقاربة التداولية، مرجع سابق، ص62.
[2]- المرجع نفسه، ص84.
[3]- شنان قويدر، التداولية في الفكر الأنجلوساكسوني، مرجع سابق، ص22.

القانونية في فرنسا خلال القرون الوسطى، وابتداءً من القرن السابع عشر انتقل استعماله إلى الميدان العلمي، فصارت التداولية تعني كل بحث أو اكتشاف من شأنه أن يفضي إلى تطبيقات عملية ذات فائدة"[1].

أمّا عن نشأة التداولية والتي تعتبر المرحلة الثالثة لتاريخ الدّراسات اللغوية وأبحاث المعنى، والفرع الثالث من فروع السيميائية، وعن أصولها النظرية فإنّ الفلسفة التحليلية تعتبر المنهل الأوّل الذي انبثقت منه أولى بوادر التداولية، والمتمثلة في الأفعال الكلامية، وهذه الفلسفة تفرعت عنها فلسفات أخرى ساهمت في بلورة هذه المقاربة بصورة عامة[2]، إذ ارتبطت التداولية بحقل الفلسفة التحليلية، ثمّ انفصلت عنها لتكون ذات وجه لساني يُعنى بدارسة اللغة لحظة الاستعمال.

ومن المناسب هنا أن نشير إلى أنّ البذور التّأسيسية الأولى لهذا التيار المعرفي ترجع إلى خمسينيات القرن العشرين، وبالتحديد إلى سنة 1956 وإلى أولى مقالات **تشومسكي** و**ميلر** و**نيوال** و**سيمون**، وهذه الإرهاصات الأولى نجدها كذلك في مناقشات **جون أوستين** 1950 وكذا محاضرات **بول غرايس** 1967 ، هذه المحاضرات التي لم تسمح فقط بإحداث تقدّم في مستوى معرفتنا باللغات الطبيعية، ولكن أحدثت تغييرا امتد إلى هندسة اللسانيات. جاء في القاموس الموسوعي للتداولية ما يؤكد هذا الكلام: "فقد أدخل **أوستين** في سلسلة محاضراته المخصّصة للفلسفة مفهوما سيصبح محوريا في التداولية، وهو مفهوم العمل اللغوي، مدافعا

[1]- لوصيف الطاهر، التداولية اللسانية، ملتقى علم النص، مجلة اللغة والأدب، مرجع سابق،ص76.
[2]- انظر: جون مارك فيري، فلسفة التواصل، تر عمر مهيبل، الدار العربية للعلوم، لبنان، ط1 2006، ص13.

بذلك عن الفكرة القائلة بأنّ اللغة في التواصل ليس لها أساسا وظيفة وصفية، بل وظيفة عملية، فإذ نستعمل اللغة فإننا لا نصف العالم، بل نحقق أعمالا هي الأعمال اللغوية، فكان وجود ظواهر لغوية خاصة بالدلالة على العمل اللغوي أحد برامج البحث الأولى التي اعتمدها اللسانيون لتأسيس التداولية"[1].

فاكتشاف الأبعاد التداولية للغة فتح أفاقا أرحب، وأنتج أسئلة جديدة ستكون مسوغا للاعتراف بالتداولية، باعتبارها أحدث بحث أفرزته اللسانيات الحديثة. البحث الذي أصبح يولي أهمية وعناية كبيرة للشروط الخارج لغوية، والمتعلقة بالسياق والمقام والمتكلمين ومقاصدهم وحيثيات الاستعمال والأفعال اللغوية.

ومن جهة أخرى لايمكن إغفال الجهود السابقة له، فقد ساهمت هي الأخرى في تحديد بعض ملامح الدّرس التداولي بدءًا من الفيلسوف الأمريكي **بيرس Pierce**، حين بين معالمها في مقالين، نشر الأول سنة 1878 بعنوان: "كيف تجعل أفكارك واضحة؟" والثاني نشره عام 1905 بعنوان: "ماهي البراغماتية؟"[2].

إضافة إلى ما قدّمه الفيلسوف الأمريكي **موريس** من خلال مقال نشره عام 1938، حيث ميز بين مختلف الاختصاصات التي تعالج اللغة، وهي علم التراكيب، علم الدلالة، والتداولية التي تعنى حسب موريس بالعلاقات بين العلامات ومستعمليها(سبق وأن فصلنا في هذه النقطة في التعريف الاصطلاحي للتداولية).

[1]- جاك موشلر-آن ريبول، القاموس الموسوعي للتداولية، مرجع سابق، ص22.
[2]- رزقي حورية ، الأحاديث القدسية من منظور اللسانيات التداولية، مذكرة مقدمة لنيل شهادة ماجستير في علوم اللسان،إش بشير إبرير، جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر، 2006، ص6.

4-أنواع التداولية:

للتداولية أنواع كثيرة، وقد قسّمها الدكتور محمود أحمد نحلة في كتابه[1] إلى:

- **التداولية الاجتماعية:** التي تهتم بدراسة شروط الاستعمال اللغوي المستنبطة من السياق الاجتماعي.
- **التداولية اللغوية:** والتي تدرس الاستعمال اللغوي من وجهة نظر تركيبية.
- **التداولية التطبيقية:** تعنى بمشكلات التواصل في المواقف المختلفة.
- **التداولية العامة:** وتعنى بالأسس التي يقوم عليها استعمال اللغة استعمالا اتّصاليا.

كما يمكن أن تقسم التداولية العامة إلى اللسانيات التداولية والتداولية الاجتماعية، فالأولى: يمكن تطبيقها في دراسة الهدف اللساني من التداولية-المصادر التي توفرها لغة ما لنقل أفعال إنجازية معيّنة. والثانية: تعنى بالشروط والظروف الأكثر محليّة المفروضة على الاستعمال اللغوي وهو حقل أقل تجريدًا من الأول.

بينما يعدّد الدكتورعبد الله جاد الكريم[2] أنواعا أخرى -بالموازاة مع ما عدّده نحلة- للتداولية، وهي:

- **التداولية الحقيقية:** التي تظهر أساسا في الخطاب الحيّ، حين تتضح شروط نجاح الملفوظ وأدائه.
- **التداولية الافتراضية:** تفترض شروطا معيّنة لأداء خطاب محكيّ.

[1]- نحلة محمود أحمد، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، مرجع سابق، ص15.

[2]- http://www.shomosnews.com/?p=63457, 21/03/2024 18 :

- **التداولية الإبداعية:** تقف على الشروط المتوفرة في البنية، أو ما يحيط بها في نص إبداعيّ بعدّة ملفوظات في فترة زمنية معيّنة، حين نكون أمام نصّ إبداعي.
- **التداولية الاستراتيجية:** ظهرت نتيجة التطورات الكبيرة في الفلسفة واللّسانيات، وترى أنّ التداولية هي نظرية غير ذهنية للمقصدية الخطابية.
- **التداولية المتعالية:** ترى بأنّها الأداة المتميزة في تحقيق المشروع الفلسفي، وتمتلك هذه التداولية اتّجاها أخلاقيا.
- **التداولية الحوارية:** تعني دراسة الشروط القبلية للتواصلية، وتكمن أهميتها في: " التقيّد بالبحث عن نظرية الملاءمة والتي تتعلق بالاستعمال التواصلي للّغة"[1].

5-أهمية التداولية وأهدافها:

لعلّ أهم فائدة للتداولية هي تلك التي حدّدها شارلز موريس عام 1938 حيث قال إنّ " الدلالة تبحث في علاقة العلامات بمدلولها، والتداولية تهتم بعلاقة العلامة بمؤولها "[2]. فلاقيمة للمفردات أو العبارات بعيدة عن سياقها، إذ لابدّ من دراسة ما يتلفّظ به المتكلم داخل السياق، مع مراعاة الظروف المحيطة به، وكذا زمان ومكان التخاطب كي تتضح مقاصد المتكلم والمعاني المطلوب منه إيصالها للمخاطب.

كل هذه الأمور تهتم بها الدراسة التداولية، كما تهتم أيضا بنوعية العلاقة الاجتماعية التي تجمع بين المتكلم والمخاطب، إذ يبث المتكلم خطابه عبر وسائل الاتصال فيستعمل عدّة

[1]- فرانسواز أرمينيكو، المقاربة التداولية، مرجع سابق، ص84.
[2]- بلبع عيد، التداولية البعد الثالث في سميوطيقا موريس، مجلة فصول، القاهرة، ربيع 2005، العدد 66، ص36.

طرق للإقناع والتّأثير والأمر والإخبار، كما أنّها "تدرس استعمال اللغة في السياق، وتوقف شتى مظاهر التأويل اللغوية على السياق، فالجملة الواحدة يمكن أن تعبر عن معان مختلفة أو مقترحات مختلفة من سياق إلى سياق"[1].

من خلال ما تقدّم يمكن أن نلخص أهم مهام التداولية في :

- دراسة استعمال اللغة، فهي لا تدرس البنية اللغوية في ذاتها، ولكنّها تدرس اللغة عند استعمالها في الطبقات المقامية المختلفة، أي بالنظر إليها على أنّها:

- كلام محدّد صادر من متكلم محدّد.
- كلام موجّه إلى مخاطب محدّد.
- كلام صادر وفق لفظ محدّد.
- كلام صادر في مقام تواصلي محدّد لتحقيق غرض تواصلي محدّد.

ما يمكن أن نستنتجه من كلّ ما تقدّم هو أنّ التداولية أولت أهمية بالغة بالسياق، بل لن نكون مبالغين إذا قلنا أنّها وليدة النظرية السياقية.

6-النظرية السياقية وعلاقتها بالتداولية:

قبل التطرق إلى النظرية السياقية تعريفا وتأصيلا، تجدر الإشارة إلى تبيان مفهوم السياق أوّلا، إذ يقصد به "الوضعية الملموسة التي توضع وتنطلق من خلالها مقاصد تخص المكان والزمان وهوية المتكلمين...إلخ، وكل ما نحن في حاجة إليه من أجل فهم وتقييم ما يُقال،

[1]- بلبع عيد، التداولية البعد الثالث في سميوطيقا موريس، المرجع السابق، ص37.

وهكذا ندرك أهمية السياق حين نُحرم منه مثلا، أو حين تُنقل إلينا المقاصد عبر وسيط وفي حالة معزولة عن السياق الذي يصبح مبهما عامة ودون قيمة"[1].

من خلال التعريف نستشف أنّ السياق المقصود هنا ذو جانبين مختلفين متكاملين:

الأول: لا يخرج عن كونه تركيبا أو نظما لغويا.

الثاني: خارج عن التركيب اللغوي متجاوز لحدوده.

ولعل تركيز التداولية على السياق وأهميته في فهم العلاقة التخاطبية، هو ما دفع بـ**ماكس بلايك Max blyck** إلى وصف التداولية باسم **السياقية**، لأنّها في نظره علم الاستعمال اللساني ضمن السياق، أو بتعبير أكثر شمولا: هي استعمال العلامات ضمن السياق.

لقد قامت هذه النظريّة على مفهوم السياق والذي حدّده أهل الاختصاص في أنّه مجموعة من الظروف الاجتماعية التي تؤخذ بعين الاعتبار لدراسة العلاقة الموجودة بين الظواهر اللّغوية والاجتماعية، وتعرف بالسياق الاجتماعي للاستعمال اللّغوي، أو سياق الحال[2]، وهذا هو المبدأ العام الذي انطلقت منه هذه النّظرية في تفسير الأفعال اللغوية. يرى الباحث أحمد مختار عمر أنّ " مدرسة لندن عرفت بما يسمى بالمنهج السياقي أو المنهج العلمي، وكان زعيم هذا الاتجاه **فيرث Firth** الذي وضع تأكيدا كبيرا على الوظيفة الاجتماعية للّغة...ومعنى الكلمة عند أصحاب هذه النظرية هو استعمالها في اللغة"[3]

[1]- بعلي حفناوي ، التداولية البراغماتية الجديدة خطاب ما بعد الحداثة، مجلة اللغة والأدب، مرجع سابق، ص55.
[2]- انظر عكاشة محمود، التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة، دار النشر للجامعات، مصر، ط2 2011، ص12.
[3]- مختار أحمد عمر، علم الدلالة، عالم الكتب، مصر، ط5 1998، ص68.

إذاً ارتبطت النظرية السياقية باللّساني البريطاني **فيرث Firth** الذي حاول إثبات صدق المقولة بأنّ المعرفة وظيفة السياق، فنراه ينصّ على أنّ اللغة تُدرس في ضوء الظروف الاجتماعية المحيطة بها، لأنّها مزيج من عوامل العادة والعرف والتقاليد وعنصر الماضي والإبداع وكل ذلك يشكل لغة التواصل. وقد ارتبط مصطلح المعنى السياقي مع مصطلح المقام، إذ يقول أحد الباحثين موضّحا المعنى السياقي بقوله:" نقصد بالمعنى السياقي ما يوضّحه سياق الحال، وأنا أستعمل سياق الحال بالمعنى الفني الذي استعمله أستاذنا فيرث، وقد كان يأخذ في عين الاعتبار الأقوال والأشخاص والأفعال..."[1]. أمّا المعنى المقامي فهو المعنى الذي يُفهم من العالم الخارجي الذي أُنتج فيه النّص، أو من القرائن الخارجية التي تلازم اللّفظ من الموقف الاجتماعي الذي قيل فيه، والتي تدخل في تحديد دلالته والمُراد به، فقد نعجز عن فهم المُراد إذا أُنتزع النّص من سياقه الخارجي، وسوء التفسير ينتج من عدم النظر في القرائن الخارجية مثل المكان والزمان والأفراد المشاركين في الحدث والمناسبة التي قيل فيها وقناة التواصل[2].

وعليه ومما تقدم نستنتج أنّ هذه النظرية دعت إلى تسييق الوحدة اللغوية، أي وضعها في سياقات مختلفة من أجل الوصول إلى المعنى المراد وانكشاف غموضه والتّعرف على مقصيدته (وهذا هو فحوى بحثنا).

[1]- أبو الفرج محمد أحمد، المعاجم اللغوية في ضوء دراسات علم اللغة الحديث، دار النهضة العربية،بيروت لبنان، ط1 1966، ص15.

[2]- انظر عكاشة محمود، التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة، المرجع السابق، ص ص 171، 172.

أهمية النظرية السياقية:

يمكن تلخيص أهم أهداف نظرية السياق في النقاط التالية:

- معرفة الأساليب المختلفة للمنطوقات وتصنيفها حسب المواقف الصحيحة، بالإضافة إلى معرفة الملامح الشكلية نفسها.
- وصف الاستعمال الفعلي لنطق معيّن في موقفه الخاص باعتباره شيئا فريدا.
- إبراز الدّور الاجتماعي الذي يقوم به المتكلم وسائر المشتركين في الكلام.
- وجوب تحديد بيئة الكلام لأنّ هذا التحديد يضمن عدم الخلط بين لغة وأخرى[1].

إنّ هذه الأهداف تحيلنا على أن اهتمام النظرية السياقية كان منصبا على إحلال القول محله ضمن السياق الاجتماعي ومن ثم الخروج بتعميمات حول أنماط المعاني التي تفرزها سياقات اجتماعية محدّدة.

[1]- انظر مختارأحمد عمر، علم الدلالة، مرجع سابق، ص ص 69، 75.

المبحث الثاني: مفهوم التداولية في الدراسات العربية.

1-تعرف التداولية:

1.1- لغة: يرجع مصطلح التداولية في أصله العربي إلى الجذر اللّغوي (دَ وَ لَ) وله معان مختلفة، لكنّها لا تخرج عن معاني التّحول والتّبدل، فقد ورد في لسان العرب :" تداولنا الأمر: أخذناه بالدُّوَل، وقالوا دواليك أي مُداولة على الأمر ... وتداولته الأيدي أخذته هذه مرّة وهذه مرّة ... تداولنا العمل والأمر بيننا بمعنى تعاورناه. فعمل هذا مرّة وهذا مّرة "[1]. وعلى غرار ذلك جاء في معجم مقاييس اللّغة جميعها التعريف التالي: " دول الدال والواو واللام أصلان أحدهما يدلّ على تحوّل شيء من مكان إلى مكان، والآخر يدلّ على ضعف واسترخاء، فأمّا الأوّل فقال أهل اللغة: اندال القوم إذا تحوّلوا من مكان إلى مكان، ومن هذا الباب تداول القوم الشيء بينهم إذ صار من بعضهم إلى بعض. والدَولة والدُولة لغتان، يقال الدَولة في المال والدُولة في الحرب، وإنما سميا بذلك قياس الباب لأنّه أمر يتداولونه، فيتحول من هذا إلى ذاك ومن ذاك إلى هذا "[2].

وبهذا يكون الفعل يداول مفيدا معنى النقل والدوران، بل تكاد تلك الإحالات اللغوية تؤسس لوجود طرفي التداول، أي معنى ما تناقله الناس وأداروه فيما بينهم.

2.1- اصطلاحا: تعدّدت الترجمات العربية للمصطلح الأجنبي Pragmatique فقيل براغماتية نقلا حرفيا عن المصطلح الأجنبي، وقيل التداولية، المقامية، الوظيفية، السياقية،

[1]- ابن منظور، لسان العرب، المرجع السابق، جذر دول، ج4، ص513.
[2]- ابن فارس أحمد، معجم مقاييس اللغة، تح عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1 1991، ج2، ص256.

الذرائعية، والنفعية، وبين تلك الألفاظ – في الواقع – فروق لا تسمح باستعمالها مترادفة لتكون مقابلا للمصطلح الأجنبي، إذ " يعود أصل تسمية **البراغماتية** – أو الذرائعية الجديدة – إلى منظري السيمياء مثل تشارلز موريس، وتشارلس ساندرز بيرس، وجون ديوي على وجه الخصوص، وتختلف دلالتها حسب الحقل الذي نبعت منه: كالفلسفة واللّسانيات والاتّصال ..."[1].

فإذا كانت **البراغماتية** تُعنى بخصائص استعمال اللغة عند المستعملين وردود أفعال المستقبلين، والنماذج الاجتماعية للخطاب، فإنّ مصطلح **الذرائعية** يحيل إلى توجّه فلسفي معيّن، أو بالأحرى نظرية فلسفية عامة للعقلانيّة التي تؤطر جملة من الاهتمامات الإنسانية، يتم بموجبها الحكم على قانون ما من خلال التطبيقات العمليّة، والنتائج المتوخاة منها، ويبدو ذلك التوجّه مستلهما نوعا ما من الاستعمال الكانطي لمصطلحPragmatics.

في حين نجد مصطلح **التداولية** يغطي عملية إنتاج المعنى في رحاب أنظمة العلامات، فهو يراعي العقلانية إلاّ في علاقتها بالخطاب والسياق وعندئذ لا يفتأ يغمر الجذور الفكرية والفلسفية للبحث التداولي[2]. يقول عبد الملك مرتاض: " وقد اصطنع في العربية النقدية المعاصرة على أنه (تداولية) في حين أنّا نشك في أنّه كذلك بهذه الصفة التي ورد عليها في أصل الاستعمال الغربي، لأن صيغة هذا الاستعمال Pragmatiqueلاتدلّ على وجود ياء النزعة المعرفية (علمية أو فلسفية أو أدبية) والتي يُطلق عليها النحاة العرب

[1]– بعلي حفناوي، التداولية البراغماتية الجديدة، خطاب ما بعد الحداثة، مجلة اللغة والأدب، مرجع سابق، ص 56.

[2]– انظر بلقندوز هواري، التداوليات النصية مقاربة في فهم الخطاب وتأويله، بحث مقدم لنيل شهادة دكتوراه في لسانيات الخطاب، إش أحمد يوسف، جامعة وهران، الجزائر، 2009/2008، ص17

بغير إقناع (ياء الصناعية)، فالأجانب يصطنعون صيغة أخرى لما يقابل هذه الياء أو اللاحقة الثنائية على الأصح " ية " Pragmatisme فكيف نترجم نحن العرب مفهومين اثنين في أصلهما بصيغة عربية واحدة؟...ولذلك نقترح أن نطلق على مقابل المفهوم الأول (تداول) أي تداول اللغة...، وعلى المفهوم الآخر المنصرف إلى النزعة المذهبية (تداولية) وذلك حتى نطوّع العربية"[1].

ونتيجة لتعدد منطلقاتها واختلافها في الدّراسة التّداولية حدث نوع من التداخل بين حقولها وحقول أخرى، أدّى ألى تنوع التسميات وبالخصوص في ترجمتها في اللغة العربية، ومنه نلاحظ أن مصطلح التداولية قد ارتبط باتجاهين مختلفين:

الأول: يهتم بالجانب الاستعمالي للغة في السياقات المختلفة، فيحاول تجاوز الطرح المتوارث للبنية اللغوية من أجل الكشف عن الوظيفة العملية لها.

الثاني: منطلقه فلسفي، يحاول بحث القضايا المعرفية من خلال آثارها العملية.

وتجدر الإشارة إلى أنّ أول من اقترح مصطلح التّداولية مقابلا للمصطلح الغربي Pragmatique هو **طه عبد الرحمن**، وقد تبنّاه أحمد المتوكل واستعمله، فلقي استحسان المختصين الذين تداولوه في محاضراتهم وكتاباتهم، " "وقد وقع اختيارنا منذ 1970 على مصطلح "التداوليات" مقابلا للمصطلح الغربي (براغماتيقا)، لأنه يوفي المطلوب حقه، باعتبار دلالته على معنيين (الاستعمال) و(التفاعل) معا، ولقي منذ ذلك الحين قَبولا من لدن

[1]- مرتاض عبد الملك، تداولية اللغة بين الدلالة والسياق، مجلة اللسانيات، مركز البحوث العلمية والتقنية لترقية اللغة العربية، الجزائر، العدد 10، 2005، ص ص 66،67.

الدارسين الذين أخذوا يدرجونه في أبحاثهم"[1]. وعليه فقد اهتم طه عبد الرحمن بالقضايا التداولية من وجهة نظر منطقية فلسفية مستمدا وسائله النظرية والمنهجية من علمين حققا نتائج باهرة هما اللسانيات والمنطق.

2-جذور التداولية في التراث العربي:

لا يمكن الحديث عن ارهاصات التداولية في الدّرس العربي القديم دون الإشارة إلى علماء البلاغة والنحو، فدراسة عملية التواصل أو الاتصال قديمة، يعود جذورها إلى الدراسات التنظيرية عند الجاحظ وحازم القرطاجني والجرجاني وسيبويه والمبرد وغيرهم، لكنّها كانت ذات طابع معياري تهتم بالأثر الناتج مباشرة عن الرسالة والشروط التي تجعل الخطاب ناجحا، وفي هذا ملامح للتداولية الحديثة، فكما ركّز هؤلاء المنظرين على المرسل والمتلقي والرسالة، فعملية التّأثير والتّأثر والقصد ونوايا المتكلم والفائدة من الكلام والإفهام تعدّ أيضا جوهر النظرية التداولية.

1.2- عند البلاغيين:

ذهب بعض المحدثين إلى أن التداولية الحديثة بعد الجاحظ في أصله لتركيزه واهتمامه على هذا المستوى في كتابه (البيان والتبيين) وعلى عملية التأثير في المتلقي والإقناع، وقد سميت هذه النظرية عنده والتي تعرف اليوم بالتداولية بـ**نظرية التأثير والمقام**. يقول العمري: " إن هذا البعد (أي التأثير) هو أحد الأبعاد الأساسية في البلاغة العربية، وهو بعد جاحظي في

[1]- طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، د ط2000 ، ص27.

أساسه، وإن تخلّى البديعيون عنه في مرحلة لاحقة، أدّى إلى اختزال البلاغة العربية وتضييق مجالها، وتحظى نظرية التأثير والمقام حاليا بعناية كبيرة في الدّراسات السيميائية، ومن ثم الشروع في إعادة الاعتبار إلى البلاغة العربية تحت عنوان جديد هو التّداولية"[1].

تتجلى جذور التداولية عند الجاحظ من خلال تقسيمه للبيان إلى ثلاث وظائف، واهتمامه أكثر بالوظيفة التأثيرية التي تمثل جانبا مهما في التداوليات الحديثة، يقول الجاحظ: " أمّا بعد، يمكن إرجاع وظائف البيان اعتمادا على كل ما سبق إلى ثلاث وظائف أساسية وهي:

أ- الوظيفة الإخبارية المعرفية التّعليمية (حالة الحياد، إظهار الأمر على وجه الإخبار قصد الإفهام).

ب- الوظيفة التأثيرية (حالة الاختلاف) تقديم الأمر على وجه الاستمالة وجلب القلوب.

ت- الوظيفة الحجاجية (حالة الخصام) إظهار الأمر على وجه الاحتجاج والاضطرار."[2].

كل هذه الوظائف تشكل جوهر النظرية التداولية في الدراسات المعاصرة باعتبارها مقاربة تهتم بالتواصل في الدرجة الأولى، والإقناع والتأثير وإيصال المعنى وتقديم الفائدة ومنه فإنّ غايتها منفعية بحتة.

2.2- عند النحاة:

لا يمكن الحديث عن النحاة جميعا، أو أن نختزل جهودهم في ورقة واحدة، ولذلك سنكتفي بنموذجين يتحدّثان عن الجانب الاستعمالي في اللغة، أو ما يُعرف بالسياق.

---

[1]- العمري محمد، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، إفريقيا الشرق، المغرب، د ط 1999، ص 293.

[2]- الجاحظ أبو عثمان عمرو، البيان والتبيين، تح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، مصر، ط4 1975، ج 1، ص 75

فحين عرّف مثلا ابن هشام الكلام قال: " هو ما تحصل به الفائدة، سواء كانت لفظا أو خطا أو إشارة أو ما نطق به لسان الحال "[1]. ومؤدّى هذا القول واضح، فتجليات الكلام لدى النحاة أربعة: اثنان ينتسبان إلى المستوى اللغوي الخالص: وهما: اللّفظ والخط، واثنان ينتسبان إلى المحيط الخارجي الذي يكتنف موقف الخطاب، وهما: الإشارة وواقع الحال التي تحيط بالخطاب وهذا باب من أبواب دراسة التداولية.

كما نستحضر هنا تعريف ابن جني للكلام حيث قال: " فلو كان استماع الأذن مغنيا عن مقابلة العين مجزئا عنه، لما تكلّف القائل ولا كلّف صاحبه الإقبال عليه والإصغاء إليه، وعلى ذلك قالوا: رُبّ إشارة أبلغ من عبارة، وقال لي بعض مشايخنا رحمهم الله: أنا لا أُحسن أن أكلم إنسانا في الظلمة "[2]. وفي هذا القول استحضار لما لتأثير عناصر الموقف الخارجي في استعمال اللغة على مواقف الخطاب وما يصاحبها من حركة اليدين، أو إيماءات الوجه، أو دفقات المشاعر المتمثلة في دمعة وابتسامة أو غيرها...وهذا كلّه في صلب التداولية .

3-تجليات مرتكزات التداولية في الفكر العربي:

1.3- السياق المقامي:

يعتبر مفهوم السياق من المفاهيم التي أسالت الكثير من الحبر في الفكر المعاصر، وبالخصوص في علم اللغة، فالسياق إطار عام تنتظم فيه عناصر النّص ووحداته اللّغوية، ومقاييس تتصل به الجمل فيما بينها وتترابط، وبيئة لغوية وتداولية ترعى مجموع العناصر

[1]- ابن هشام الأنصاري، شذور الذهب في معرفة كلام العرب، تح محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، د ط 2011، ص 54.

[2]- ابن جني أبو الفتح عثمان، الخصائص، تح محمد علي النجار، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، ط4 1990، ج1، ص247.

المعرفية التي يقدمها النّص للقارئ[1]. إنّ هذه التوطئة البسيطة لأهم مرتكز للتداولية في الفكر العربي تقودنا لتساؤل بديهي ألا وهو: ما هو السّياق؟

أ- **لغة:** السياق في اللغة لفظ ذو تشكيلات عديدة، مأخوذ من الجذر اللغوي (سَ وَ قَ) جاء في اللّسان بمعنى التتابع، "ساق يسوقها سوقا وسياقا وهو سائق وسوّاق، انساقت وتساوقت الإبل إذا تتابعت"[2]. وفي أساس البلاغة أن من المجاز قولهم: " فلان يسوق الحديث أحسن سياق وهذا الكلام مساقه إلى كذا "[3] ومعناه هناك النمط الذي يتخذه الحديث في تتابعه. وقريب من هذا ما ورد في المعجم الوسيط: "ساق الحديث: سرده وأورده بسهولة وسلاسة، وساوقه : تابعه وسايره وجاراه، وسياق الكلام : تتابعه وأسلوبه الذي يجري عليه"[4].

ب- **اصطلاحا:** لا يمكننا في هذا البحث أن نستعرض كل ما قيل في باب السياق عند اللغويين، فإنّ ذلك يحتاج إلى بحوث مستقلة، وإنّما نكتفي ببعض الإشارة العابرة التي نتبيّن من خلالها اهتمام هؤلاء بموضوع السياق.

يقول تمام حسان في هذا الصدد: "وحين قال البلاغيون (لكل مقام مقال) و (لكل كلمة مع صاحبتها مقام) وقعوا على عبارتين من جوامع الكلم تصدقان على دراسة المعنى في كل

[1]- انظر: بودرع عبد الرحمن، أثر السياق في فهم النّص القرآني، الإحياء، مجلة فصلية تصدرها الرابطة المحمدية للعلماء، المغرب، العدد 25، 2005، ص 73.

[2]- ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج6 ، ص 484.

[3]- الزمخشري محمود بن عمر، أساس البلاغة، تح محمد باسل عيون سود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1 1998، ج2، ص 257.

[4]- معجم اللغة العربية، معجم الوسيط، مادة سوق.

اللغات لا العربية الفصحى فقط"[1]. يتضح لنا من خلال هذا القول أن الكلمة يُتبين معناها من خلال الظروف المحيطة بها من زمان ومكان و....

وقد وردت لفظة السياق في التراث العربي بهذه الصيغة وبصيغ أخرى، كالحال والمشاهدة والمشاهد والدليل والقرينة والمقام والموقف وغيرها، غير أنّه في علم اللغة الحديث نجد ترادفا بين مصطلحي السياق والمقام، ومصطلحي المقام والحال، فالسياق يُستعمل طورا للدلالة على السياق النّصي (أي المحيط اللغوي الذي تقع فيه الوحدة اللغوي)، كما يُستعمل للدلالة على الظروف والملابسات الخارجية التي تستعمل هي بدورها لتأويل لفظة أو عبارة أو نص ما. وفي هذا المقام ينظر تمام حسان إلى السياق من ناحيتين:

أولهما: توالي العناصر التي يتحقق بها التركيب والسبك والسياق من هذه الزاوية يسمى (سياق النّص) أي السيق اللغوي.

ثانيهما: توالي الأحداث التي صاحبت الأداء اللغوي وكانت ذات علاقة بالاتصال ومن هذه الناحية يسمى السياق (سياق الموقف)[2].

وبالتالي يمكن القول أن مصطلح السياق يطلق على مفهومين:

- السياق اللغوي.
- سياق التلفظ، أو سياق الحال، أو سياق الموقف.

[1]- تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، مرجع سابق، ص 372.
[2]- انظر المرجع نفسه، ص ص 262، 264.

2.3- أنواع السياق:

يمكن تقسيم السياق من أكثر من زاوية، فمن كونه لغويا وغير لغوي فهو على قسمين: **سياق لغوي وغير لغوي** كما حدّدهما العالم بالمر، أو **سياق لغوي وسياق الموقف** كما حدّدهما فيرث، غير أنّ العرب سبقوا كل فيرث وبالمر في هذا التقسيم، إذ صنفوه إلى صنفين: **سياق مقالي** و**سياق مقامي**. يقول تمام حسان: " لقد كان البلاغيون عند اعترافهم بفكرة المقام بشقيه المقالي والمقامي متقدمين بأكثر من ألف سنة على زمانهم، لأنّ الاعتراف بفكرتي المقام والمقال باعتبارهما أساسين متميزين من أسس تحليل المعنى، يعتبر الآن الغرب من الكشوف التي جاءت بمغامرات العقل المعاصر في دراسة اللغة"[1].

3.3- أهمية السياق:

للسياق أهمية بالغة يمكن أن نوجزها في النقاط التالية[2]:

- يحدد معنى الكلمة في الجملة، وليس للكلمة معنى محدد خارج السياق.
- التفريق بين معاني المشترك اللفظي، فالمعنى الدقيق لدلالة الألفاظ إنما يعود للسياق.
- تنوع الوظائف التداولية هو انعكاس لتنوعات السياق كاستجابة له، كما تتركز أهمية سياق الحال أو المقام في الدرس الدلالي في فوائد منها:

أ- الوقوف على المعنى.

ب- تحديد دلالة الكلمات وإفادة التخصيص.

[1]- تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، المرجع السابق، ص 337.
[2]- انظر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد،بيروت، لبنان، ط1، 2004، ص 40.

ت- رفع التوهم.

ث- رد المفهوم الخاطئ.

4-السياق عند الأصوليين:

تنبئ مؤلفات أعلام التفسير وعلوم القرآن عن وعي متقدم بحقيقة اتّساق الخطاب القرآني في بنائه الداخلي، واسجامه مع واقعه الخارجي، ويخبر أنّ القرآن الكريم رغم تفاوت أوقات نزوله يشكل نصا واحدا، إذ لا معنى من دون سياق، ولا تأويل من دون اعتباره، تلك إحدى خلاصات تعاطي الأصوليين مع خطاب الوحي، وإحدى مسلماتهم التي قرّروها نتيجة تفاعلهم معه قراءة وفهما وتأويلا. وتجدر الإشارة إلى أنّ الأصوليين لم يتعرضوا إلى تعريف السياق وضبط حدوده، وهذا ما تؤكده جميع البحوث المعاصرة التي تناولت السياق بالدراسة، غير أنه ومنذ البدايات الأولى لتدوين علم الأصول وبناء أدواته، ورسم مفاصله ومهامه على يد المؤسس الأول الإمام **محمد إدريس الشافعي** ظهر الاهتمام بمفهوم السياق وبرز دوره واضحا في تأويل الخطاب[1]، فقد عنون بابا من أبواب رسالته الأصولية ب (باب الصنف الذي يبيّن سياقه معناه)[2] وأيا كان المقصود عنده من السياق هنا فإنّ لهذه العبارة دلالتها في هذا المقام[3].

[1]- انظر فاطمة بوسلامة، السياق عند الأصوليين المصطلح والمفهوم، مجلة الإحياء، مرجع سابق، ص 38.
[2]-انظر الشافعي، الرسالة، تح: أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1972، ص 62.
[3]- انظر: فاطمة بوسلامة، السياق عند الأصوليين المصطلح والمفهوم، المرجع السابق، ص 38.

كما ناقش الإمام الزركشي حجية دلالة السياق، وذلك في مسألة خاصة بعنوان (دلالة السياق) ضمن باب الأدلة المختلف فيها، حيث قال: " نكرها (يقصد دلالة السياق) بعضهم ومن جهل شيئا أنكره، وقال بعضهم: إنها متفق عليها في مجاري كلام الله تعالى"[1].

لعل هذا النص يعبّر بوضوح أهمية السياق في فهم كلام الله، بل هو وسيلة لا يُستغنى عنها في الإرشاد إلى مقصود الشارع.

بل إنّ إهماله برأي الإمام ابن قيم الجوزية يؤدي إلى الوقوع في الغلط والمغالطة، إذ يقول تحت عنوان فائدة: " يرشد إلى تبيين الجمل وتعيين المجمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد وتخصيص العام وتقييد المطلق وتنوع الدلالة، وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره وغالط في مناظرته، فانظر إلى قوله تعالى:{ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الكَرِيمُ} الدخان:46. كيف تجد أنّ سياقه يدلّ على أنّه الذليل الحقير"[2].

ولا يمكن أن نهمل في استعراضنا لأهم من تناولوا مفهوم السياق بالدراسة ابن تيمية، إذ يقول: "واعلم، أنّ من لم يحكم دلالات اللّفظ ويعلم أنّ ظهور المعنى من اللفظ تارة يكون بالوضع اللغوي، أو العرفي، أو الشرعي، إما في الألفاظ المفردة وإما في المركبة، وتارة بما اقترن باللفظ من التركيب الذي يتغير به دلالته في نفسه، وتارة بما اقترن به من القرائن اللفظية التي تجعلها مجازا، وتارة بما يدلّ على حال المتكلم والمخاطب، والمتكلم فيه وسياق الكلام الذي يعين أحد محتملات اللّفظ، أو يبيّن أن المراد به مجازه، إلى غير ذلك من

[1]- الزركشي، البحر المحيط في أصول الفقه، تح: عبد القادر عبد الله العاني، دار الصفوة، مصر، ط2، 1992، ج8، ص 54.

[2]- ابن القيم الجوزية، بدائع الفوائد: تح: علي بن محمد العمران، دار عالم الفوائد،مكة، السعودية، ط1، 1997، ج2، ص372.

الأسباب التي تعطي اللّفظ صفة الظهور، وإلا فقد يتخبط في هذا الموضع"[1]. من خلال هذا التعريف يمكن أن نعتبر ابن تيمية ممثلا لنظرية السياق والتي تعد أهم أركان التداولية.

نستنتج مما تقدم أنّ الأصوليين أولوا عناية واهتماما واضحين بالسياق وإن لم يصرحوا بمفهومه بهذه الصيغة في كل مناسبة يستعملونه للكشف عن مراد الله تعالى في أذهانهم وهم يمارسون عملية الفهم والتّأويل، وخير ما نستدل به هو الوعي الكبير بالفرق بين المعنى الظاهر والمعنى المراد، إضافة إلى استعمالاتهم لترادفات كثيرة لمفهوم السياق كالقرينة والقرائن ودلالة الحال ومقتضيات الأحوال والمقام غيرها.

5-العلاقة بين النّص والسياق عند علماء الأصول:

إنّ مباحث علوم القرآن كلّها يمكن أن تُدرس دراسة وافية ضمن العلاقة بين النّص والسياق، ولكننا نجد أن بعض الموضوعات ألصق بموضوعنا من غيرها، ويمكننا ابتداءً تصنيفها إلى نوعين من الموضوعات:

أ- موضوعات تتعلق بظروف التنزيل (السياق المقامي) وهي: أسباب النزول، نزول القرآن منجما، المكي والمدني، والناسخ والمنسوخ.

ب- موضوعات تتصل بالنّص القرآني وعلاقاته الداخلية (السياق المقالي) وهي: موضوع المناسبة بين الآيات والسور، وقضايا لغوية منطقية تضيء مفهوم السياق في النص القرآني.

الاتساق الخارجي في النص القرآني (السياق المقامي): سنخصص الحديث هنا عن موضوع أسباب النزول لما له من أهمية في بحثنا.

[1]- ابن تيمية، التسعينية، تح: محمد بن إبراهيم العجلان، مكتبة المعارف، الرياض السعودية، ط1، 1999، م1، ص124.

- **أسباب النزول:** القول في أسباب النزول هو ألصق علوم القرآن بما نحن فيه من استقراء العلاقة بين النّص والسياق، فهو كاشف عن العلاقة وبصور متعددة تشمل السياقين المقامي والمقالي، إذ تشير كتب علوم القرآن إلى أنّ كل آية أو مجموعة من الآيات نزلت عند سبب خاص استوجب إنزالها، وقد أدرك علماء القرآن عامة والمفسرون خاصة أنّ السبب أو المناسبة المعينة هي التي تحدّد الإطار الواقعي الذي يمكن فهم الآية أو الآيات من خلاله (ملاحظة: سيأتي الحديث عن ذلك في الفصل الثاني).

وتجدر الإشارة إلى أنّ علماء القرآن لم يقفوا عند مستوى هذا الربط بين النص والواقع، وإنّما أدركوا أن النّص وإن كان من حيث النزول – أي من حيث ترتيب نزول أجزائه – مرتبطا بالوقائع والأسباب، فإنّه من حيث التلاوة – أي من حيث ترتيبه في المصحف – يتجاوز هذا الارتباط بالوقائع ليقيم روابط أخرى ناقشها العلماء أيضا في علم المناسبة بين الآيات[1].

إنّ معرفة أسباب النزول لم تكن مجرد ولع برصد الظروف والملابسات التي أحاطت بالنّص القرآني، بل من أهدافها فهم النّص واستخراج دلالته فإنّ " العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب كما يقولون"[2].

كما إنّ دراسة الأسباب والوقائع تؤدي إلى فهم حكمة التشريع خاصة في آيات الأحكام ممّا يساعد الفقهاء على نقل الحكم من الواقعة الجزئية أو السبب الخاص وتعميمه على الوقائع المشابهة. ومن أبرز أنواع هذا العلم – كما سبق وأن أشرنا إلى ذلك في فصل سابق – وله

[1]- انظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن، مرجع سابق، ص 35.
[2]- السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، مرجع سابق، ص 07.

صلة مباشرة بالسياق، القاعدة المعروفة لدى علماء التفسير(العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص سبب النزول)، حيث ناقش هذه المسألة وبالتفصيل الإمام السيوطي مستشهدا بأمثلة عديدة من القرآن الكريم، منها قوله تعالى: {وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى، الَّذِي يُوتِي مَالَه يَتَزَكَّى} الليل:17.فقد نزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق بالإجماع، ومع ذلك فإن صيغة العموم منها تفيد أنّ الحكم ليس مقصورا عليه، لذا فإنّ " عموم اللّفظ وسياق الآيات فيصل في الحكم الذي تضمنته الآيات"[1].

وعليه ومن خلال ما تقدّم، يمكن أن نتبيّن علاقة أسباب النزول بالسياق[2] في النقاط التالية:

1. جاءت آيات النزول لتواكب الوقائع والأحداث، وهو ما يعرف بالسياقي المقامي للنّص، ويشمل:

- زمن الخطاب.
- أطراف الخطاب (المخاطِب والمخاطَب) (الرسول وعلاقته بالمخاطبين).
- سياق التخاطب وأحوال المخاطبين.

2. آيات سبب النزول مناسبة لسياق الحال الذي نزلت فيه من جهة، وهي مناسبة لسياق السورة التي توجد فيها من جهة أخرى، وأن تباعد زمن النزول بين آيات السورة الواحد.

3. إنّ للسياق المقامي المرافق للنّص (الآية أو مجموعة الآيات) دوره الخاص في الكشف عن طبيعة تفاعل النّص مع الطرف الذي نزل فيه، وبسببه، ويكشف عن تفاعل النّص

[1]- المرجع السابق، ص 65.
[2]- خلود العموش، الخطاب القرآني، دراسة في العلاقة بين النص والسياق، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2008، ص ص 85.86.

مع المخاطبين بشكل خاص، كما أنّه لا يمكن تبيّن دقائق النّص وفهم مقاصده بمعزل عن السياق المقامي.

الفصل الثاني: أسباب النزول الماهية والوظيفة التفسيرية

تمهيد:

القرآن الكريم هو كلام الله عزّ وجلّ الذي أنزله على رسوله المصطفى عليه أفضل الصلاة وأتمّ التسليم، وصلنا متواترا معجزا، فهو المعجزة الخالدة التي جاء بها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم تدليلا على صدق نبوّته، بعد أن نزل به أمين الوحي جبريل بأمر من الله جلّ وعلا، وقد جاء القرآن الكريم آخر الكتب السماوية المنزلة كاملا غير منقوص ليُتِمّ الله به دينه ويَصدق وعده، ولذلك فقد تكلّف الله بحفظه، **فقال عزّ من قائل:{إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}الحجر:09**، كما أنّه تحدّى به الإنس والجن إلى قيام الساعة أن يأتوا بسورة أو بعشر آيات أو بآية واحدة، فلم يأتوا بمثله ولن يأتوا ولو تعاونوا جميعا، وها هو الإمام الطبري يؤكّد ذلك في مقدّمة تفسيره بقوله: "فإنّ من جسيم ما خصّ الله به أمّة نبينا محمد صلّى الله عليه وسلم من الفضيلة، وشرّفهم به من سائر الأمم من المنازل الرفيعة، وحباهم به من الكرامة السنية، حفظه ما حفظ عليهم – جلّ ذكره وتقدّست أسماؤه – من وحيه وتنزيله، الذي جعله على حقيقة نبوّة نبيّهم صلى الله عليه وسلم دلالة، وعلى ما خصّه به من الكرامة علامةً واضحة، وحجّةً بالغة، أبانه به من كل كاذب ومفترٍ، وفصل به بينهم وبين كل جاحد ومُلحد، وفرق به بينهم وبين كل كافر ومشرك، الذي لو اجتمع جميعُ من بين أقطارهم، من جنّها وإنسها وصغيرها وكبيرها، على أن يأتوا بسورة من مثله لم يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، فجعله لهم في دجى الظُّلم نورًا ساطعا، وفي سُدَف

الشّبه شهابا لامعا، وفي مضلة المسالك دليلا هاديا، وإلى سبل النجاة والحقّ حاديا"[1] **قال الله تعالى:{يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ ويَهْدِيهم إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم} المائدة:16.**

وتجدر الإشارة هاهنا أنّ أوّل نزول الوحي كان بالحث على العلم والقراءة، إذ خاطب سبحانه وتعالى رسوله الكريم **قائلا:{اقْرَأ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خلق الإنسان من علق، اقْرَأ ورَبُّكَ الأَكْرَم، الَّذِي عَلَّمَ بِالقَلَم، عَلَّم الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَم} العلق:01-05.** هذه الآيات هي أوّل ما نزل من القرآن الكريم على رسوله المصطفى صلوات الله عليه وسلامه، والملفت للانتباه أنّها تأمره أوّل ما تأمره بالقراءة، فماذا يعني أن تضمّ الآيات الخمس الأولى ستّ عبارات تتعلق بالقراءة والكتابة، والعلم والتّعليم؟ إنّ هذه الآيات تشكّل افتتاحية وحي السماء، وهذا يعني أنّ أهم ما جاء الإسلام لتحقيقه هو نشر العلم بكل فروعه، وأفضل العلوم وأشرفها علوم القرآن، ففهم القرآن هو الأصل واللبنة الأساسية في الانطلاق إلى محاور التعلّم والتفقّه في الدّين، ولفهم معاني القرآن الكريم وأسراره هناك علم قائم بذاته هو علم التفسير.

1- الطبري أبو جعفر محمد بن جرير، تفسير الطبري، دار ابن الجوزي، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى2009، ج 01، ص05.

المبحث الأول: ماهية أسباب النزول.

1-تعريف أسباب النزول:

أ- لغة: لفظ أسباب النزول مركب إضافي من كلمتين:

- فأسباب جمع سبب هو كلّ ما يُتوصل به إلى غيره، جاء في لسان العرب: " السّبب: الحبل. قال أبو عبيدة: السبب كلّ حبل حدرته من فوق.وقال خالد بن جنبة: السبب من الحبال القويّ الطويل. قال: ولا يُدعى الحبل سببا حتّى يُصعد به، ويُنحدر به. وفي الحديث: "كلّ سبب ونسب ينقطع إلاّ سببي ونسبي"؛ والسّبب هو كلّ ما يُتوصل به إلى الماء، ثمّ استعير لكلّ ما يُتوصل به إلى شيء؛ **قال تعالى:{ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ}البقرة:**166، أي الوُصل والموَدّات. وفي حديث عوف بن مالك رضي الله عنه: أنّه رأى في المنام كأنّ سببا دُلِّيَ من السّماء، أي حبلا. وقيل: لا يُسمّ الحبل سببا حتى يكون طرفه معلّقا بالسّقف أو نحوه"[1].

- النزول مصدر للفعل نزل ينزل نزولا وهو الحلول والانحطاط. قال ابن منظور:" نزل النّزول الحلول من علو إلى سُفل: انحدر. وقد نزلهم ونزل عليهم ونزل بهم ينزل نزولا ومنزَلا ومنزِلا بالكسر شاذ"[2].

[1]- ابن منظور: لسان العرب، مرجع سابق، سبب يسبب سببا، ج06، ص154.
[2]- المرجع نفسه، نزل ينزل نزولا، ج14، ص121 .

ب- **اصطلاحا:** معنى الأسباب في موضوعنا هو ما يتوصل المسلم عن طريقه إلى تفسيرالآيات القرآنية وفهم قصتها وإزالة الإشكال عنها. أما معنى النزول فهو نزول القرآن الكريم على سيّدنا محمد صلّى الله عليه وسلم من السماء إلى الأرض.

ويُعرَّف سبب النزول بأنّه ما نزل قرآن بشأنه وقت وقوعه كحادثة أو سؤال، وهذا ما يؤكده الإمام الواحدي، إذ يقرّ بامتناع معرفة تفسير الآية وقصد سبيلها دون الوقوف على قصّتها وبيان نزولها، ولا يحلّ القول في أسباب نزول الكتاب إلاّ بالرواية والسّماع ممن شاهدوا التنزيل، ووقفوا على الأسباب، وبحثوا عن علمها، وجدّوا في الطلاب[1].

إذن فسبب النزول هو الحادثة التي تقع في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، أو سؤال يوجه إليه فتنزل الآية أو الآيات أيام وقوع ذلك مبينة لحكم تلك الحادثة أو مجيبة على ذلك السؤال ومعنى التقييد بأيام وقوع ذلك أن الحادثة أو السؤال لا يعتبران سببا لنزول الآية أو الآيات إلا إذا نزلت عقب ذلك مباشرة ، كما في حادثة خولة بنت ثعلبة التي ظاهر منها زوجها أوس بن الصامت فنزلت بسببها آيات الظهار في أول سورة المجادلة، أو تأخر نزولها يسيرا لحكمة، كما في حادثة الإفك ، فقد نزلت الآيات بعدها بشهر كما رواها البخاري عن عائشة في حديث طويل نقتطف منه قول السيدة عائشة رضي الله عنها "وقد لبث شهرا لا يوحى إليه في شأني" الحديث .

[1]- انظر الواحدي، أسباب النزول، تد.عصام بن عبد المحسن حميدان، دار الأصلاح، الدمام، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية1992، ص08.

أما الحوادث القديمة، وقصص الأنبياء السابقين، فلا تعتبر أسبابا للنزول، لأنها لم تقع في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، لذا أُخذ على الواحدي جعله قدوم الأحباش إلى البيت الحرام بالفيلة سببا لنزول سورة الفيل. قال السيوطي: "والذي يتحرر في سبب النزول أنه: ما نزلت الآية أيام وقوعه، ليخرج ما ذكره الواحدي في سورة الفيل من أن سببها قصة قدوم الحبشة به، فإنّ ذلك ليس من أسباب النزول في شيء بل هو من باب الإخبار عن الوقائع الماضية كذكر قصة قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وبناء البيت، ونحو ذلك "[1].

عرّف الإمام السيوطي علم سبب النزول نقلا عن ابن تيمية فقال: " معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية، فإنّ العلم بالسبب يورث العلم بالمسبّب "[2]. وقد أردف السيوطي تعريف ابن تيمية بأن بيّن متى يلجأ المفسر إلى أسباب النزول بأن قال:" وقد أشكل على جماعة من السلف معاني آيات حتّى وقفوا على أسباب نزولها فزال عنهم الإشكال، وقد بسطت أمثلة ذلك في النوع التاسع من كتاب الإتقان في علوم القرآن "[3].

والتعريف ذاته تقريبا نجده عند الزركشي نقلا عن أبي الفتح القشيري إذ قال:" بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني الكتاب العزيز "[4].

وعليه فعلم أسباب النزول هو فرع من فروع علم التفسير، وهو علم يبحث فيه عن نزول سورة أو آية ووقتها ومكانها وغير ذلك، أي ذكر كل ما يتّصل بنزول الآيات القرآنية من

[1]- السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، مرجع سابق، ص90.
[2]- السيوطي، لباب النقول في أسباب النزول، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى2002، ص07.
[3]- المرجع نفسه، ص07.
[4]- الزركشي، البرهان في علوم القرآن، مرجع سابق، ج1، ص26.

القضايا والحوادث سواء في ذلك قضايا المكان أو حوادث الزمان التي صاحبت نزول القرآن الكريم، وعلى هذا فنزول القرآن –كما يقول المفسرون– على قسمين:

- قسم نزل ابتداء، أي: غير مرتبط بسبب من الأسباب الخاصة إنما هو لمحض هداية الخلق إلى الحق، وهو أكثر القرآن.
- قسم عقب واقعة أو بيان، أي: نزل مرتبطا بسبب من الأسباب الخاصة وهو أقل القرآن.

يقول الإمام ابن عاشور في مقدّمته الخامسة لتفسيره: "أولع كثير من المفسرين بتطلب أسباب نزول آي القرآن، وهي حوادث يروى أنّ آيات من القرآن نزلت لأجلها لبيان حكمها أو لحكايتها أو إنكارها أو نحو ذلك، وأغربوا في ذلك وأكثروا حتّى كاد بعضهم أن يوهم النّاس أنّ كل آية من القرآن نزلت على سبب، وحتّى رفعوا الثقة بما ذكروا. بيد أنا نجد في بعض آي القرآن إشارة إلى الأسباب التي دعت إلى نزولها ونجد لبعض الآي أسبابا ثبتت بالنقل دون احتمال أن يكون ذلك رأي الناقل، فكان أمر أسباب نزول القرآن دائرا بين القصد والإسراف، وكان في غض النظر عنه وإرسال حبله على غاربه خطر عظيم في فهم القرآن"[1].

نستنتج مما تقدم أنّ علم أسباب النزول هو العلم الذي يُعنى بالبحث عن مكان وزمان وقوع حادثة تحدّثت عنها آية أو سورة، كحدوث خطإ ما، أو وقوع خصومة ما، أو سؤال حصل في الماضي أو سيحصل في المستقبل...

[1]- ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج1، ص46.

وهذا ما يقودنا إلى الخوض في التعريف بهذا العلم بشكل يعتمد على الوصف والتحليل مبتدئين بالنظر في تاريخ هذا العلم.

2-تاريخ علم أسباب النزول:

إن علم أسباب النزول علم مستقل ومتكامل، له نظريته وتطبيقاته ومسائله المحدّدة المقنّنة، وليس معنى هذا أنّه مقطوع الصّلة عن غيره من العلوم، بل إنّها تتكامل لتصب في خدمة القرآن الكريم، ولِتَبيّن مسار هذا العلم قمنا بتتبع مراحله التاريخية مستندين في ذلك على ما قام به الدكتور بسام الجمل من دراسة تاريخية لهذا العلم، إذ ورد في كتابه المعنون (أسباب النزول) أنّ: " علم أسباب النزول مرّ بمراحل تاريخية أسّست لمساره نشأةً وتطورا واكتمالا، وقد رأينا تقسيم هذا المسار إلى ثلاث مراحل كبرى تأخذ بعين الاعتبار الخصائص المميزة لهذا العلم في كل مرحلة، وحاولنا في الوقت نفسه ضبط الحدود الزمنية للمراحل الثلاث معولين في ذلك على المنعرجات الكبرى التي عرفتها الثقافة الإسلامية قديما[1]"

نتبيّن من خلال التعريف أنّ علم أسباب النزول مرّ بثلاث مراحل نستعرضها في الآتي:

- **مراحل أسباب النزول:**

أ- **المرحلة الأولى:** تبدأ بنزول الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم وتنتهي بانتهاء النصف الأوّل من القرن الثاني الهجري، وقد صادفت هذه المرحلة أحداثا مهمة منها نزول الوحي المدني مرورا بالصراع السياسي على الحكم في العصر الأموي وصولا إلى

[1]- بسام الجمل، أسباب النزول، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2005، ص 61.

نظام الخلافة[1] . وخير ما نستدل ونستأنس به في هذا الطور ما ورد عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنّه لفت الأنظار إلى علم أسباب النزول، وتحديدا في الرواية التي تقول أن رسول الله عليه الصلاة والسلام كان يُكرم عبد الله بن أم مكتوم الذي نزل فيه قوله تعالى:**{ عَبَسَ وَتَوَلَّى، أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى }عبس:1**-2. قال الإمام الرازي: " أتى رسول الله صلّى الله عليه وسلم ابن أم مكتوم وعنده صناديد قريش عتبة وشيبة ابن ربيعة وأبو جهل بن هشام، والعباس بن عبد المطلب وأميّة بن خلف، والوليد ابن المغيرة يدعوهم إلى الإسلام، رجاء أن يُسلم بإسلامهم غيرهم، فقال للنبي صلى الله عليه وسلم: أقرئني وعلمني ممّا علمك الله. وكرر ذلك، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم قطعه لكلامه، وعبس وأعرض عنه، فنزلت هذه الآية، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرمه ويقول إذا رآه: " **مرحبا بمن عاتبني فيه ربي** "، ويقول هل لك من حاجة واستخلفه على المدينة مرتين "[2]، وفي هذا اهتمام منه صلى الله عليه وسلم بمن نزلت فيه الآيات، وتعريف به وإظهار له، وهذا هو علم أسباب النزول بعينه، على أنّ لنا في قول النبيّ صلى الله عليه وسلم " بلّغوا عنّي ولو آية " ما يمكن الاستدلال به على ذلك، إذ كان علم أسباب النزول قائما على النّقل المرفوع الصحيح.

وعلى نهج محمد صلّى الله عليه وسلم سار صحابته رضوان الله عليهم جميعا، إذ ورد عنهم اهتمامهم بهذا العلم، وحرصهم على تحصيله، والاستنارة بفهمه، " فعن قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب قال: جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين

[1]- انظر المرجع السابق، ص 61.

[2]- الفخر الرازي، التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة د ت، ج31، ص54.

آية في كتابكم تقرؤونها لو علينا نزلت معشر اليهود لاتخذنا ذلك اليوم عيدا، قال: وأيّ آية؟ قال: **{ اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا }المائدة:04**. فقال عمر رضي الله عنه: والله إنّي لأعلم اليوم الذي نزلت فيه على رسول الله صلى الله عليه وسلم والساعة التي نزلت فيها على رسول الله عشيّة يوم عرفة في يوم الجمعة .رواه البخاري ومسلم "[1].

ب- المرحلة الثانية: كانت انطلاقتها من النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة وصولا إلى أواخر القرن الرابع الهجري، وقد عُرفت هذه المرحلة ببداية كتابة وتسجيل العلوم الإسلامية قصد تنظيم الروايات الشفوية، وهذا ما أقرّه بسام الجمل إذ قال: " يغطّي هذا الطور النصف الثاني من القرن الثاني ويمتدّ إلى آخر القرن الرابع الهجري. وقد دُشن هذا الطور بحدث ثقافي خطير هو تدوين المعارف الإسلامية بإشراف الدولة. ومعلوم أنّ القصد من التدوين هو تنظيم الروايات الشفوية المتداولة وفق ضوابط منهجية واختيارات معرفية وإيديولوجية[2]". وأضاف مؤكدا: " لقد تزايد الاهتمام ضمن هذا الإطار الثقافي بأسباب نزول القرآن، وتعاظمت رغبة الأجيال التي أعقبت جيل التابعين في معرفت الخلفيات التاريخية لنزول الوحي، وبذلك وجدت هذه الأجيال ضالتها في مرويات التابعين، فحرصوا على

[1]- الواحدي، أسباب النزول ، مرجع سابق، ص175.
[2]- بسام الجمل، أسباب النزول، مرجع سابق، ص 72.

تدوينها صيانة لها من الضياع خاصة في ضوء بروز صراع وتنازع بين نمَطَي المشافهة والتدوين[1]"

وقد ذكر الإمام أبو جعفر محمد الطبري أهمية هذا العلم والحاجة إليه في مقدّمة تفسيره تحت عنوان (في الحضّ على العلم بتفسير القرآن، ومن كان يفسره من الصحابة) فقال: " وحدثنا أبو كريب، قال: حدثنا جابر بن نوح، قال: حدثنا الأعمش، عن مسلم، عن مسروق، قال: قال عبد الله : والذي لا إله غيره، مانَزلت آية في كتاب الله إلاّ وأنا أعلم فيم نَزَلت؟ وأين أنزلت؟ ولو أعلم مكان أحدٍ أعلمَ بكتاب الله منّي تناله المطايا لأتيته "[2].

أمّا التابعين فقد كان لهم الحظ الأوفر من هذا العلم، وقد جاء عنهم ما يدلّ على اهتمامهم به، مشيرين إلى وجوب تقصّي الرواية والسّماع من الثقات، ويؤكد على هذا السيوطي نقلا عن الواحدي إذ قال: " لا يحلّ القول في أسباب نزول الكتاب إلاّ بالرواية والسماع ممّن شاهدوا التنزيل، ووقفوا على الأسباب وبحثوا عن علمها "[3].

وهنا إشارة إلى أنّ الطريقة الوحيدة لمعرفة أسباب النزول مقصورة على النقل الصحيح، ولا مجال للعقل في هذا الموضوع إلا التمحيص والترجيح، فالرواية عن تابعيّ لا تقبل إلاّ إذا صحت واعتضدت بمرسل آخر، وكان الراوي له من أئمة التفسير الآخذين من الصحابة، كمجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير.

[1]- المرجع السابق، ص 73.
[2]- الطبري، تفسير الطبري، مرجع سابق، ج01، ص80.
[3]- السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، مرجع سابق، ص 89.

ولا ينبغي التهاون في هذا الشأن وإلقاء القول على عواهنه بل لابدّ من التثبّت في سبب النزول حتى لا ندخل تحت قوله صلّى الله عليه وسلم: "من كذب عليّ متعمّدا فليتبوّأ مقعده من النّار" رواه مسلم.

وكان السلف الصالح يتحرزون من القول في سبب النزول بغير علم، "قال محمد بن سيرين: سألت عبيدة عن آية من القرآن، فقال: اتّق الله وقل سددا، ذهب الذين يعلمون فيم أنزل الله القرآن"[1].

ت- المرحلة الثالثة: يعدّ القرن الخامس الهجري مستهل هذه المرحلة، إذ غلب عليها الجمود والتقليد، كما تجدر الإشارة إلى أنّ استقلال علم أسباب النزول عن علم التفسير كان من نتاج هذا الطور، فصار علما قائما بذاته، وفي هذا يقول بسام الجمل: " وفي هذا الطور بالذات عرف علم أسباب النزول منعرجا بارزا في مساره التاريخي، تمثّل في استقلال العلم بذاته. فبعد أن كان طيلة أكثر من قرن مندرجا في أدبيات التفسير القرآني انفصل عنها بدءًا من القرن الخامس".[2]

في هذه المرحلة تحديدا ظهرت التآليف الكاملة لهذا العلم وتعدّدت.

- **اهتمام العلماء بالكتابة في أسباب النزول:**

اهتم العلماء الباحثون في علوم القرآن بمعرفة سبب النزول، ولمسوا شدّة الحاجة إليه في تفسير القرآن الكريم، فأفرده جماعة منهم بالكتابة والتّأليف، من أشهرهم:

[1]- الرجع السابق، ص89.
[2]- بسام الجمل، أسباب النزول، المرجع السابق، ص 82.

- المحدث علي بن المديني شيخ الإمام البخاري المتوفي عام (234هـ)، مخطوط. وقد أكد كلّ من الإمامين الزركشي والسيوطي ذلك، حيث قال هذا الأخير: " أفرده بالتصنيف جماعة أقدمهم علي بن المديني شيخ البخاري"[1].

- أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري المتوفي عام (468هـ) في كتابه أسباب النزول.

- الحافظ ابن حجر العسقلاني المتوفي عام (852هـ) في كتابه العجاب في بيان الأسباب.

- جلال الدين السيوطي المتوفي عام (911هـ) والذي قال عن نفسه: "وقد ألّفت فيه- أي أسباب النزول- كتابا حافلا موجزا محّررا لم يؤلف مثله في هذا النوع سمّيته: (لباب النقول في أسباب النزول)"[2].

- خالد عبد الرحمن العك في كتاب تسهيل الوصول إلى معرفة أسباب النزول.

المصنفات في علم أسباب النزول كثيرة وقد اقتصرنا منها على المشهور دون المغمور.

3-أنواع أسباب النزول:

إنّ المتصفح لكتب المفسرين والباحثين في علوم القرآن يجد اختلافا في تحديد أنواع أسباب النزول، غير أنّهم اتفقوا على ثلاثة أنواع نوردها كما حدّدها الإمام الزركشي في كتابه البرهان، حيث جعلها على شكل فصول متفرقة:

[1]- المرجع السابق، ص84.
[2]- المرجع نفسه، ص 84.

1- فيما نزل مكّررا:

ويقصد به نزول الآية أو السورة مرتين في موضعين مختلفين، إما لتعظيم شأنها، أو خوفا من نسيانها فيكرر نزولها عند حدوث سببها، "وقد ينزل الشيء مرتين تعظيما لشأنه، وتذكيرا به عند حدوث سببه خوف نسيانه، وهذا كما قيل في الفاتحة: نزلت مرتين، مرة بمكة، وأخرى بالمدينة، وكما ثبت في الصحيحين"[1].

والحكمة من هذا أنّه قد يحدث سبب من سؤال أو حادثة تقتضي نزول آية، وقد نزل قبل ذلك ما يتضمنها تذكيرا بها.

2- خصوص السبب وعموم الصيغة:

من أشهر قواعد التفسير لدى أهل القرآن، وعند أهل الأصول قاعدة العبرة في عموم اللفظ لا بخصوص السبب، ويُقصد بها الحكم النازل بصاحب السبب لا يشمله وحده، إنما يشمل جميع الأمّة أوّلها وآخرها، فلمّا كان معناها يتعدّى من صاحب السبب إلى غيره دعا ذلك علماء القرآن إلى دراسة سبب النزول وفهم المراد منه وتأصيل تفاصيل ذلك الأمر، وفي نفس الوقت دعا علماء الأصول لدراسة العلاقة بين سبب النزول وانتقال الحكم ليشمل جميع الأمّة وضوابط ذلك الشمول. يؤكد الزركشي هذا المعنى فيقول: "وقد يكون السبب خاصا والصيغة عامة لينبه على العبرة بعموم اللفظ، وقال الزمخشري في تفسير سورة الهمزة: يجوز

[1]- الزركشي، البرهان في علوم القرآن، مرجع سابق، ص30.

أن يكون السبب خاصا والوعيد عاما ليتناول كل من باشر ذلك القبيح، وليكون جاريا مجرى التعريض بالوارد فيه، فإنّ ذلك أزجر له وأنكى فيه"[1].

ومن أمثلة ذلك أيضا ما ورد على لسان جمع من المفسرين في آية الظهار، فقد نزلت في أوس بن الصامت الذي ظاهر امرأته خولة بنت ثعلبة، ثمّ تعدّى الحكم إلى غيرهم.

3-تقدّم نزول الآية على الحكم:

أورد صاحب البرهان[2] أمثلة ثلاث لهذا النوع من أسباب النزول:

3-1 المثال الأوّل: قوله تعالى:{ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى }الأعلى:14. استدل بها على زكاة الفطر، والآية مكية، وزكاة الفطر في رمضان، ولم يكن في مكة عيد ولا زكاة.

3-2 المثال الثاني: قوله تعالى:{ لاَأُقْسِمُ بِهَذَا البَلَدِ، وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا البَلَدِ }البلد:1-2. السورة مكية، وقد ظهر أثر الحل يوم فتح مكّة الذي كان بعد الهجرة.

3-3 المثال الثالث: قوله تعالى:{ سَيُهْزَمُ الجَمْعُ وَيُولُّونَ الدُبُرَ }القمر:45. نزلت السورة في مكة، وثبت عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنّه قال: كنت لا أدري أيّ جمع يهزم، فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم **يقول:{ سَيُهْزَمُ الجَمْعُ وَيُولُّونَ الدُبُرَ}.**

هناك أنواع أخرى لأسباب النزول وجدناها مبثوثة في كتب التفاسير، وهاهو الإمام السيوطي يورد إضافة إلى ما ذكرناه سالفا نوعا آخر من أسباب النزول وهو:

[1]- المرجع السابق، ص32.
[2]- المرجع نفسه، نفس الصفحة.

- **تعدد الأسباب والمنزّل واحد:** وقد أوجز في تعريفه إذ قال:" فإن عبّر أحدهم بقوله: نزلت في كذا، والآخر: نزلت في كذا، وذكر أمرا آخر، فقد تقدم أن هذا يُراد به التفسير لا ذكر سبب النزول، فلا منافاة بين قوليهما إذا كان اللفظ يتناولهما "[1]. ومن هذا القبيل ما روي من أنّ النبي سئل مرتين عمّن وجد مع زوجته رجلا[2]، كيف يصنع؟ سأله عاصم بن عدي مرّة، وسأله عويمر العجلاني مرّة أخرى، واتّفق في مرّة ثالثة أنّ هلال بن أميّة قذف امرأته عند النبي بشريك بن سمحاء، فكانت هذه أسبابا متعدّدة تستدعي نزول الوحي لتوضيح موقف الزوج من زوجته إذا اطّلع على خيانتها وما إذا كان من الجائز له أن يقذفها ويتّهمها بدون بيّنة أو لا يجوز له ذلك إلاّ ببيّنة، فإن اتّهم بدون بيّنة استحق حدّ القذف، ولأجل ذلك نزل **قوله تعالى:{وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلاَّ أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ}النور:6**.فكان السبب متعدّدا والمنزل واحد.

أمّا الإمام الواحدي فيصنف نوعين آخرين لأسباب النزول نلخصهما فيما يأتي:

- **تعدد نزول النّص لتعدّد الأسباب:** في حالة تعدّد السبب قد يوجد فاصل زمني كبير بين أحد السببين والآخر فيؤدّي السبب الأوّل إلى نزول الآية فعلا ثمّ يتجدّد نزولها حينما يوجد السبب الثاني بعد ذلك بمدّة، فيكون السبب متعددا والنزول متعدّدا وإن كانت الآية النازلة في المرتين واحدة. جاء في تفسير الواحدي[3] **لقوله تعالى:{ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُوحِ قُلِ الرُوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ العِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً }الإسراء85.** أنّ هذه الآية نزلت عندما

[1]- السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، مرجع سابق، ص91.
[2]- السيوطي، لباب النقول في أسباب النزول، مرجع سابق، ص266.
[3]- الواحدي، أسباب النزول، مرجع سابق، ص245.

سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الروح من قبل نفر من اليهود في المدينة، وكذا عند سؤال قريش مكة للنبي صلوات الله عليه وسلامه عن الروح أيضا بإيعاز من اليهود. ويقال أنّ سورة الإخلاص من هذا القبيل ، إذ نزلت مرتين، إحداهما بمكة جوابا للمشركين الذين سألوا محمدا صلى الله عليه وسلم وصف الله ، والأخرى بالمدينة جوابا لأهل الكتاب الذين جاورهم النبي صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة.

- **تعدد النزول مع وحدة السبب:** قد يتعدد ما ينزل والسبب واحد ولا شيء في ذلك، فقد ينزل في الواقعة الواحدة آيات عديدة في سور شتى، ومثاله الذي أورده كل من السيوطي[1] في لباب النقول والواحدي[2] في أسباب النزول، عن أمّ سلمة قالت: يا رسول الله، لا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء، **فأنزل الله قوله تعالى:{ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ }آل عمران:195.**

عن أم سلمة قالت: يا رسول الله، مالنا لا نذكر في القرآن كما يُذكر الرّجال؟ فلم يرعني منه ذات يوم إلاّ نداؤه على المنبر وهو يقول:{إِنَّ المُسْلِمِينَ وَ المُسْلِمَاتِ وَالمُومِنِينَ وَ المُومِنَاتِ}الأحزاب:35.

عن أمّ سلمة أيضا قالت: تغزو الرجال ولا تغزو النّساء، وإنّما لنا نصف الميراث، فأنزل **الله قوله تعالى:{ وَلاَ تَتَمَنَّوا مَا فَضّلَ اللهُ بِهَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا**

[1]- السيوطي، لباب النقول في أسباب النزول، مرجع سابق، ص69.
[2]- الواحدي، أسباب النزول، مرجع سابق، ص88.

وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ }النساء:32. وأنزل قوله تعالى:{ إِنَّ المُسْلِمِينَ وَ المُسْلِمَاتِ}الأحزاب:35.

فهذه الآيات الثلاث نزلت على سبب واحد.

وكآخر نوع نورده لأنواع أسباب النزول ما جاء في كتاب صحيح الأدب المفرد، إذ صنّف صاحبه[1] نوعا سادسا لهذه الأخيرة وهو:

- **تعدد ما نزل في شخص واحد:** فقد يحدث لشخص من الصحابة أكثر من واقعة، ويتنزل القرآن بشأن كل واقعة منها، فيتعدّد ما نزل بشأنه بتعدد الوقائع، وقد أورد الإمام البخاري مثالا لهذا النوع في كتابه وتحديدا في باب (في بر الوالد المشرك)، حيث روى عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: نزلت في أربع آيات من كتاب الله عزّ وجلّ:

الأولى: كانت أمه حلفت ألاّ تأكل ولا تشرب، حتى يفارق محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله تعالى:**{ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُنْيَا مَعْرُوفًا }لقمان:15.**

الثانية: أنّه كان قد أخذ سيفا أعجبه، فقال: يا رسول الله هب لي هذا السيف، فنزلت:**{ يسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ قُلِ الأَنْفالُ للهِ وَالرَّسُولِ }الأنفال:01.**

الثالثة: أنّه كان مريضا فأتاه رسول الله صلّى الله عليه وسلم فقال: يارسول الله، إنّي أريد أن أقسّم مالي، أفأوصي بالنّصف؟ فقال: لا، فقال: الثلث، فسكت، فكان الثلث بعد جائزا.

[1]- البخاري، صحيح الأدب المفرد، تح محمد ناصر الدّين الألباني، مكتبة الدليل، المملكة العربية السعودية، الطبعة الرابعة1997، ص40.

الرابعة: أنّه شرب الخمر مع قوم من الأنصار، فضرب رجل منهم أنفه بلحي جمل، فأتى رسول الله صلّى الله عليه وسلم فأنزل الله عزّ وجل تحريم الخمر.

4-الفرق بين سبب النزول والمناسبة:

إنّ من الخصائص التي انفرد بها النظم القرآني عن غيره من النظم تناسب آياته وسوره كونه وحدة موضوعية جامعة لأهدافه ومقاصده، ومن يتدبّر خصائص هذا النظم يبحث عن سر ترابط الآية بالآية، والسورة بالسورة ضمن علم من علوم القرآن الكريم ألا وهو **علم المناسبة** الذي يوقفنا على بيان الصلات بين الآيات بعضها ببعض، وبين السور جميعا على وجه من التعالق والتآلف.

المناسبة هي المقاربة والمشاكلة، وهذا ما أكده ابن منظور في سياق حديثه عن مصدر ناسب يناسب إذ قال: "وتقول: ليس بينهما مناسبة أي مشاكلة"[1] ، أما ابن فارس في معجم مقاييس اللغة فقال: " النون، والسين، والباء كلمة واحدة، قيلسها اتصال شيء بشيء، منه النسب، سمي لاتصاله، والنسيب الطريق المستقيم لاتصال بعضه من بعض"[2].

عرّف ابن العربي المناسبة في كتابه سراج المريدين بأنّها :" ارتياط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني"[3]. أما الزركشي فقد قال في معرض تعريفه بهذا العلم : " المناسبة في اللغة المقاربة، وفلان يناسب فلانا أي يقرب منه

[1]- ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ناسب يُناسب مناسبةً، ج14، ص 129.
[2]- ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، دار الجيل، بيروت، لبنان، نسب أنسب مناسبةً، ج5، ص ص 423-424.
[3]- ابن العربي القاضي أبو بكر، سراج المريدين نقلا عن البرهان، المرجع السابق، ج1، ص 35.

ويشاكله، ومنه النسيب الذي هو القريب المتصل كالأخوين وابن العم ونحوه ... ولهذا قيل: المناسبة أمر معقول، إذا عرض على العقول تلقته بالقبول[1]، وكذلك المناسبة في فواتح الآي وخواتيمها ومرجعها"

فعلم المناسبة علم يُعنى بإبراز أوجه الصلة وتناسب الآيات والسور. يحدّد الإمام السيوطي طبيعة الارتباط بين الآيات فيقول: " أن يكون ظاهر الارتباط لتعلّق الكلم بعضه ببعض وعدم تمامه بالأولى، فواضح. وكذلك إذا كانت الثانية للأولى على وجه التأكيد أو التفسير أو الاعتراض أو البدل ..." [2]، ومن هنا يتضح لنا أن التناسب والمناسبة يدلان بالأصل على مطلق الصلة بين آيتين أو سورتين، ولكن هذه الصلة بينهما تضفي عليهما لونا من الترابط والمشاكلة، ومنه فإنّ معنى التناسب تطور فيما يبدو ليدلّ على معنى التماثل والتشابه والتوافق بين الطرفين المتناسبين، وإن كان التناسب لا يقتضي التشابه بين الطرفين بالضرورة بل الأهم هو وجود الرابطة والصلة بينهما، وهذه الأخيرة نتبيّنها بدراسة علل الترتيب لأجزاء القرآن الكريم وذلك لأهمية هذا العلم في تدبر القرآن، إذ يجعل " أجزاء الكلام آخذ بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط ويصير التأليف حاله حال الأكيد البناء المحكم المتلائم الأجزاء"[3]. أثار الإمام الزركشي في كلامه هذا نقطة مهمة جدا وهي لب لباب دراسة المفسرين لعلم المناسبة ألا وهي أهمية ومقاصد هذا العلم.

[1]- انظر الزركشي، البرهان في علوم القرآن، المرجع السابق، ج1، ص 35.
[2]- السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، مرجع سابق، ص 695.
[3]- الزركشي، البرهان في علوم القرآن، المرجع السابق، ج 1، ص 35.

- **أهمية علم المناسبة:**

لعلم المناسبة فوائد جمّة ومقاصد جليلة، بالوقوف على بعضها ترتفع همة الطالب له، وتسمو إليه نفسه، وسنحاول في عجالة ذكر بعض فوائده كما جاءت مبثوثة في كتب المفسرين والتي تؤكد على أهمية هذا العلم:

أ- من فوائده إبراز جانب من أسرار القرآن العظيم في اتساقه، وصورة من صور إعجازه من حيث ترابط أجزائه وإحكام بيانه وانتظام كلامه وروعة أسلوبه، يقول الإمام الرازي في هذا الباب: " ومن تأمل في لطائف نظم سور القرآن وبدائع ترتيبها، علم أنّ القرآن كما أنّه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه، فهو أيضا معجز بحسب ترتيبه ونظم آياته، ولعل الذين قالوا: إنّه معجز بحسب أسلوبه أرادوا ذلك"[1]. من الأمثلة اللطيفة التي أوردها الإمام الزركشي لهذه الفائدة تحت باب (أنواع ارتباط الآي بعضها ببعض) نذكر: " ومنها قوله: **أَ{فَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ، وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ} الغاشية: 17،18**، فإنّه يقال: ما وجه الجمع بين الإبل والسماء والجبال والأرض في هذه الآية؟ والجواب: إنّما الجمع بينها على مجرى الإلف والعادة بالنسبة إلى أهل الوبر"[2]. فالعرب معروف عنهم أنّ معاشهم مرتبط بالإبل[3]، وأن الانتفاع لا يحصل إلاّ بالرعي والشرب، الذي مصدره المطر وهذا سبب تقلب وجوههم في السماء، كما أنهم اضطروا اضطرارا للجوء إلى الجبال لتحصينهم، غير أن

[1]- الرازي، التفسير الكبير، مرجع سابق، ج 7، ص 139.
[2]- الزركشي، البرهان في علوم القرآن، مرجع سابق، ج1، ص42.
[3]- انظر المرجع نفسه، ص ص 42-43.

الحياة والعيش يتطلب التنقل والترحال، فإذا نظر البدوي في خياله وجد صورة هذه الأشياء حاضرة فيه على الترتيب المذكور.

ب- من فوائده أيضا أنّه يعين على فهم معنى الآيات وتحديد المراد منها، وقد أكد ذلك الإمام السيوطي حين قال: " قال بعض المتأخرين: الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن هو: أنّك تنظر إلى الغرض الذي سيقت له السور، وتنظر ما يحتاج إليه ذكر الغرض من المقدّمات، وتنظر إلى مراتب تلك المقدّمات في القرب والبعد من المطلوب ... فهذا هو الأمر الكلي المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن، فإذا عقلته تبيّن لك وجه النظم مفصّلا بين كل آية وآية وفي كل سورة سورة"[1]. وحتى نتبيّن معنى هذه الفائدة أكثر نورد هذا المثال الذي كان محل خلاف بين العديد من مفسري قوله تعالى: **{وَالصَّافَاتِ صَفًّا} الصافات:1**. فقال قوم: هي الملائكة، وهذا قول الجمهور من بينهم الإمام الطبري إذ يقول في تفسيره: " قال أبو جعفر: أقسم الله تعالى ذكره بالصافات، فأمّا الصافات فإنّها الملائكة الصافات لربّها في السّماء، وهي جمع صافة، فالصافات جمع جمعٍ، وبذلك جاء تأويل أهل التأويل"[2].

وقال آخرون من أهل العلم الصافات في الآية الطير تصف أجنحتها في الهواء، مستأنسين في **ذلك بقول تعالى: {أَوَ لَمْ يَرَوا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَحْمَنُ } الملك:19.**

[1]- السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، مرجع سابق، ص 697.
[2]- الطبري، تفسير الطبري، مرجع سابق، ج23، ص 446.

والصحيح الأوّل وذلك لأننا لو بحثنا في المناسبة بين أول السورة وخاتمتها لوجدنا الله تعالى ذكر في خاتمة السورة في معرض حديث الملائكة [1]عن أنفسهم: **و{إِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ وَإِنّاَ لَنَحْنُ المُسَبِّحُونَ } الصافات:166،165.**

في الأخير ومن خلال استعراضنا لتعريف علم المناسبة والوقوف على أهم فائدتين من فوائده ومقارنة ذلك مع ما تقدم في هذا المبحث من تعريف لأسباب النزول نستنتج أن لهما الأثر البليغ في فهم المعنى وتفسير الآية، كما أنها يساعدان على حسن التأويل ودقة الفهم، وقد حثّ الرسول محمد صلى الله عليه وسلم على دراسة القرآن والتمعن فيه وحفظه من الضياع والتحريف، فهو أساس الدين الإسلامي وأهم كتاب في تاريخ البشرية.

[1]- انظر المرجع السابق، ص 452.

المبحث الثاني: فاعلية أسباب النزول في الدرس التفسيري.

1-تعريف تفسير القرآن:

أ- **لغة:** هو الإيضاح والتبيين وقد جاء تعريفه في لسان العرب على النّحو التالي: "من مصدر فسر: الفسر: البيان، يَفْسُر الشيء يفسِره بالكسر ويفسُره بالضم فسرًا وفسّره أبانه، والتفسير مثله، يقول ابن الأعرابي: التفسير والتأويل والمعنى واحد **وقوله عزّ وجل:{وأحسن تفسيرًا}الفرقان:33.**

الفَسْرُ: كشف المُغطى، والتفسير كشف المراد عن اللفظ المُشكل، والتأويل ردّ أحد المحتملين إلى ما يطابق الظاهر"[1].

ب- **اصطلاحا:** تفسير القرآن هو الفهم السّليم والتحليل الشرعي للآيات والسّور الكريمات ضمن سياق يفهمه الجميع، ويكون التفسير باستخدام لغة واضحة وتوضيح للمعنى دون تغييب للمعاني الظاهرة والباطنة للّفظ القرآني، وقد عرّفه الإمام الزركشي بقوله: " التّفسير علم يعرف به فهم كتاب الله المنزّل على نبيّه صلّى الله عليه وسلم وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه، واستمداد ذلك من علم اللّغة والنّحو والتّصريف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول والنّاسخ والمنسوخ"[2].

[1]- ابن منظور، لسان العرب، فسر يفسر الفسر، ج 10، ص290.
[2]- الزركشي بدر الدّين، البرهان في علوم القرآن، مرجع سابق، ج 01، ص20.

وفي السياق ذاته يعرّف أبو حيّان الأندلسي علم التفسير على أنّه علم يُبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها وأحكامها الإفرادية والتّركيبية ومعانيها التي تحمل عليها التّركيب وتتمات ذلك [1].

هذا التعريف لا يختلف عن سابقه فقوله: **علم** هو جنس يشمل سائر العلوم، وقوله **يبحث في كيفية النطق بألفاظ القرآن** هذا هو علم القراءات، أما ما عناه بقوله **مدلولاتها** أي مدلولات تلك الألفاظ هو علم اللغة الذي يحتاج إليه في هذا العلم لتعلّقه ببيان معاني الألفاظ، كما يشير أبو حيان إلى علم التّصريف و الإعراب والبيان والبديع في قوله **وأحكامها الإفرادية والتركيبية**، وقوله **ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب** فيشمل ما دلالته بالحقيقة وما دلالته بالمجاز، فإنّ التركيب قد يقتضي بظاهره شيئا ويصد عن الحمل على الظاهر صاد، فيحتاج لأجل ذلك أن يحمل على غير الظاهر وهو المجاز، أمّا قوله **تتمات ذلك** فيقصد بها معرفة النسخ وسبب النزول وقصّة ما أُبهم في القرآن ونحو ذلك.

عرّف الإمام بن عاشور علم التفسير في مقدّمة تفسيره الأولى فقال: "هو اسم للعلم الباحث عن بيان معاني القرآن وما يُستفاد منها باختصار أو توسّع، والمناسبة بين المعنى الأصلي والمعنى المنقول إليه لا يحتاج إلى تطويل. وموضوع التفسير: ألفاظ القرآن من حيث البحث

[1]- أبو حيان، تفسير البحر المحيط، تح عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1 1993، ج 01، ص26.

عن معانيه، وما يُستنبط منه، وبهذه الحيثية خالف علم القراءات لأنّ تمايز العلوم– كما يقولون– بتمايز الموضوعات، وحيثيات الموضوعات"[1] .

أما الإمام السيوطي فقد حصر علوم القرآن الكريم في ستّة أمور معدّدا أنواع كل علم بالتفصيل، حيث قال: " وأنواع القراءات شاملة وعلومه كاملة، فأردت أن أذكر في هذا التصنيف ما وصل إلى علمي، ممّا حواه القرآن الشريف، من أنواع علمه المنيف، وينحصر في أمور:

الأمر الأوّل: مواطن النزول وأوقاته ووقائعه، وفي ذلك اثنا عشر نوعا: المكي، المدني، السّفري، الحضري، اللّيلي، النّهاري، الصيفي، الشتائي، الفراشي، والنومي، أسباب النزول، أوّل ما نزل، آخر ما نزل.

الأمر الثاني: السّند، وهو ستّة أنواع: المتواتر، الآحاد، الشاذ، قراءات النبي صلى الله عليه وسلم، الرُواة، الحُفَّاظ.

الأمر الثالث: الأداء، وهو ستّة أنواع: الوقف، الابتداء، الإمالة، المدّ، تخفيف الهمزة، الإدغام.

الأمر الرابع: الألفاظ، وهو سبعة أنواع: الغريب، المُعرَّب، المجاز، المشترك، المترادف، الاستعارة، التّشبيه.

[1]- ابن عاشور محمد الطاهر، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج 01، ص12.

الأمر الخامس: المعاني المتعلّقة بالأحكام، وهو أربعة عشر نوعا: العام الباقي على عمومه، العام المخصوص، العام الذي أُريد به الخصوص، ما خصَّ فيه الكتاب السّنة، ما خصّصت فيه السُّنة الكتابَ، المجمل، المبيّن، المؤول، المفهوم، المطلق، المقيّد، الناسخ والمنسوخ، نوع من النّاسخ والمنسوخ، وهو ما عمل به من الأحكام مدّة معيّنة والعامل به واحد من المكلفين.

الأمر السادس: المعاني المتعلقة بالألفاظ، وهو خمسة أنواع: الفصل، الوصل، الإيجاز، الإطناب، القصر.

وبذلك تكمّلت الأنواع خمسين. ومن الأنواع ما لا يدخل تحت الحصر، الأسماء، الكنى، الألقاب، المبهمات. فهذا نهاية ما حصر من الأنواع"[1] .

وعليه فعلوم القرآن هي كلّ ما تعلق بالقرآن الكريم من حيث النزول والترتيب والجمع والكتابة والقراءة والتجويد، وكذا علوم التفسير ومعرفة المحتكم والمتشابه والناسخ والمنسوخ وأسباب النزول وإعجازه وإعرابه ورسمه وعلم غريب القرآن وغير ذلك من العلوم من أجل تلاوة كتاب الله كما أراد الله، وفهمه على الوجه الصحيح بالإضافة إلى التدبّر والتفكّر في كلام الله.

[1]- السيوطي جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، مرجع سابق، ص23.

2-الفرق بين التفسير والفهم والتّأويل:

أ- الفرق بين التّفسير والفهم:

التفسير كما جاء في تعريفه آنفا هو بيان معاني القرآن، أمّا الفهم والتّدبر فهو عملية يقوم بها الإنسان لنفسه عند تلاوة كلام الله تعالى، وقد جاء في لسان العرب تعريف الفهم على النحو التالي: "فهِم الفَهْم: معرفتك الشيء بالقلب، فهِمَه فهْما وفَهَما وفهامة: علمه، الأخيرة عن سيبويه"[1] .جاء في تفسير الطبري **لقوله تعالى:{أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القُرآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}محمد:24.** "يقول تعالى ذكره: أفلا يتدبر هؤلاء المنافقون مواعظ الله التي يعظهم بها في آيِ القرآن الذي أنزله على نبيّه عليه السلام، ويتفكّرون في حججه الّتي بيّنها لهم في تنزيله، فيعلموا بها خطأ ما هم عليه مقيمون؟ **{أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}**. يقول: أم أقفل الله على قلوبهم، فلا يعقلون ما أنزل الله في كتابه من المواعظ والعبر"[2].

فالآية الكريمة عبارة عن خطاب موجّه للمعرضين عن القرآن الكريم، فيه تنبيه واضح لهم بأن يتأملوا فيه ويتدبّروا معانيه، فلو فعلوا ذلك لدلّهم على كل خير وأبعدهم عن كلّ شر، أم على قلوب هؤلاء أقفال قد أُحكم إغلاقها، فلا تصل إليها موعظة ولا تنفعها ذكرى.

ب- الفرق بين التفسير والتّأويل:

تأويل الكلام لغةً تفسيره وبيان معناه، أي إعطاء معنى لقول أو نصّ لا يبدو فيه المعنى واضحا لأوّل وهلة، ويؤكّد على هذا المعنى ابن منظور بقوله: " أوّل الكلام وتأوّله:

[1]- ابن منظور: لسان العرب، مرجع سابق، فهم يفهم الفهم، ص381.
[2]- الطبري، تفسير الطبري، مرجع سابق، الجزء 24، ص226.

دبّره وقدّره، وأوّله وتأوّله: فسّره. **وقوله عزّوجلّ: {ولَمَّا يَأْتِهِم تَأْوِيلُهُ} يونس:39**، أي لم يكن معهم علم تأويله. وفي حديث ابن عباس: " اللهم فقهه في الدّين وعلّمه التّأويل "رواه الحارث بن أبي أسامة وأحمد بن حنبل بسند صحيح. قال ابن الأثير: هو آلَ الشيءُ يؤول إلى كذا أي رجع وصار إليه، والمراد بالتأويل نقل ظاهر اللّفظ عن وضعه الأصلي إلى ما يحتاج إلى دليل لولاه ما تُرِكَ ظاهر اللّفظ"[1] .

أمّا في الاصطلاح فعند السلف له معنيان: **أحدهما:** هو تفسير الكلام وبيان معناه، سواء وافق ظاهره أو خالفه، فيكون بذلك التفسير والتأويل على هذا مترادفين. **ثانيهما:** هو نفس المراد بالكلام، فإن كان الكلام طلبا كان تأويله نفس الفعل المطلوب، وإن كان خبرا كان تأويله نفس الشيء المخبَر به، وبين هذا المعنى والذي قبله فرق واضح[2]. أما عند المتأخرين فقد خصّص الزركشي في البرهان فصلا مستقلا لبيان الفرق بين التفسير والتّأويل، وعلى منواله سار السيوطي في الإتقان، فقد ردّ الزركشي على من قال بأنّ" التفسير والتّأويل واحد بحسب عُرف الاستعمال، والصحيح تغايرهما"[3].وحجّة من قال بفكرة التماثل والترادف أنّ كلا من التفسير والتأويل يفيد معنى البيان والتوضيح، وهذا الرأي يقلل من أهمية الفروق الواضحة في استعمال اللفظتين.

[1]- ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، تأوّل يتأول التأويل، ج 01، ص320.
[2]- انظر، القطان مناع خليل، مباحث في علوم القرآن، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، مصر، ط3، 2000،ج1، ص320.
[3]- الزركشي، البرهان، مرجع سابق، ج02، ص107.

وقد نقل الزركشي عن الراغب قوله:" التفسير أعم من التأويل، وأكثر استعماله في الألفاظ، وأكثر استعمال التأويل في المعاني كتأويل الرؤيا، وأكثره يستعمل في الكتب الإلهية، والتفسير يستعمل في غيرها، والتفسير أكثر ما يستعمل في معاني مفردات الألفاظ"[1]. وتقريبا هو ذاته ما جاء به السيوطي في كتابه نقلا عن الراغب إذ قال في تفسيره: " اعلم أنّ التفسير في عُرف العلماء كشف معاني القرآن وبيان المراد، أعم من أن يكون بحسب اللّفظ المشكل وغيره، وبحسب المعنى الظاهر وغيره، والتّأويل: أكثره في الجمل"[2].

كما أنّه بيّن لنا الفرق بين التفسير والتأويل على لسان أبي طالب التّغلبي فقال: "التفسير بيان وضع اللفظ إما حقيقة أو مجازا، كتفسير الصراط بالطريق والصيّب بالمطر، والتّأويل تفسير باطن اللفظ، مأخوذ من الأوّل وهو الرجوع لعاقبة الأمر، فالتّأويل إخبار عن حقيقة المراد، والتّفسير إخبار عن دليل المراد، لأنّ اللفظ يكشف عن المراد، والكاشف دليل، مثاله قوله تعالى: **{ إِنَّ رَبَّكَ لبِالمِرْصَادِ} الفجر:14**.تفسيره: أنّه من الرّصد، يقال: رصدته راقبته، والمرصاد (مفعال) منه. وتأويله: التحذير من التهاون بأمر الله، والغفلة عن الأُهبة، والاستعداد للعرض عليه، وقواطع الأدلّة تقتضي بيان المراد منه على خلاف وضع اللفظ في اللغة"[3].

[1]- المرجع السابق، ص107.
[2]- السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، مرجع سابق، ص 848.
[3]- المرجع نفسه، ص848.

وقال في موضع آخر:" وقال غيره: التفسير يتعلق بالرّواية، والتّأويل يتعلق بالدّراية"[1]، مؤكدا كلام الزركشي الذي أورد التعريف ذاته مستدلا بقائله إذ قال: " وقيل : التأويل كشف ما انغلق من المعنى، ولهذا قال البجلي: التفسير يتعلق بالرواية، والتأويل يتعلق بالدراية، وهما راجعان إلى التلاوة والنظم المعجز الدال على الكلام القديم القائم بذات الرب تعالى".[2]

أمّا أبو نصر القشيري فقد اعتبر التفسير في الاتباع والسماع، والاستنباط مما يتعلق بالتأويل[3].

وعليه يمكننا أن نستنتج من مجمل التعاريف السالفة الذكر خصائص كل من التفسير والتّأويل كما يلي:

أولا: خصائص التفسير:

1- أكثر استعمال التفسير في الألفاظ والمفردات.

2-مهمة التفسير بيان وضع اللفظ إما حقيقة أو مجازا.

3-غاية التفسير كشف معاني القرآن وبيان المراد منه.

4-يعتبر في التفسير الاتباع والسماع.

5-التفسير يتعلق بالرواية.

[1]- المرجع السابق، ص849.
[2]- الزركش، البرهان، مرجع سابق ، ج2، ص 107.
[3]- المرجع نفسه، ص 107.

هذه الخصائص تجعل مهمة المفسّر محددة ومنضبطة ومن ثمّ وُصِف(علم التفسير) بالعلمية، فلا يملك المفسّر أن يخرج عن حدود مهمته، سواء من حيث ارتباطه بالاتباع والسماع أو من حيث بيان معاني الألفاظ والمفردات، وظاهر هذا التقييد يفيد أنّ المهمة البيانية للمفسّر لا تؤهله لدور الاستنباط الذي يتطلب جهدا يتجاوز حدود البيان، والاستنباط هو غاية المؤوّل، وبخاصة فيما يتعلق بآيات الأحكام.

ثانيا: خصائص التّأويل:

1-مواطن التّأويل في المعاني والجمل.

2-غاية التّأويل تفسير باطن اللفظ وإخبار عن حقيقة المراد.

3-التّأويل يعتمد على التّرجيح ولا مجال للقطع فيه.

4-التّأويل يتعلق بالدّراية.

5-الاستنباط من متعلقات التّأويل.

هذه الخصائص تجعل التّأويل أعمّ من التّفسير، لأنّه يتعلق بالمعاني والجمل، وقد جاءت كلمة التّأويل في القرآن الكريم بأكثر من معنى ، كمعنى العاقبة والمصير **في قوله تعالى: { ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا} الكهف: 82**، وبمعنى تكشف عاقبته **كما قال تعالى: {يوم يأتي تأويله }الأعراف:53** ،وغيرها من المعاني[1] ، في حين أنّه سبحانه وتعالى لم

[1]- انظر الزركشي، البرهان، مرجع سابق، ج2، 106.

يذكر التفسير ومشتقاتها إلاّ مرة واحدة فقط في القرآن الكريم كلّه **في قوله تعالى في سورة الفرقان الآية 33: { وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا}**أي تفصيلا .

هذا الاختلاف في تعريف كل من التفسير والتّأويل يؤكد غموض المعنى المراد بالتّأويل، والحرص على أن يظل كل من التفسير والتّأويل ملازما للآخر ومتمّما دوره في بيان المعاني الغامضة وكشف النقاب عن المراد.

وبالرغم من وضوح الخصائص لكل من التفسير والتّأويل، فإنّ التداخل بين اللّفظين واضح، ومن الصعب وضع معيار دقيق يحدّد مواطن التفسير والتّأويل، وما يعتبر من التفسير وما يعتبر من التّأويل، ولعلّ هذا هو السبب الذي دفع طائفة من العلماء إلى القول بأنّ كلا من التفسير والتّأويل يدلان على معنى واحد.

3-أنواع التّفسير ومناهجه:

اتّبع المفسرون مناهج متعدّدة في تفسير كلام الله تعالى، وترجع هذه المناهج في مجملها إلى منهجين أساسيين هما:

- التفسير بالمأثور (بالرواية).
- التفسير بالرأي (بالدراية).

أولا- التفسير بالمأثور:

ويعتمد هذا الأخير على تفسير القرآن بالقرآن أو بالسّنة، لأنها جاءت مبيّنة لكتاب الله، أو بما روي عن الصحابة، لأنّهم أعلم النّاس بكتاب الله، أو بما قاله كبار التّابعين، لأنّهم تلقوا ذلك غالبا عن الصحابة، بحيث يُنقل عنهم بلا زيادة، مبتعدين عن الاستنباط والاستنتاج ما أمكنهم، وله أربعة أقسام هي:

أ- **تفسير القرآن بالقرآن:** هو أحسن أنواع التفسير، إذ يعتمد على صحيح المنقول من تفسير القرآن بالقرآن. نقل الإمام السيوطي عن ابن تيمية من مقدّمة تفسيره تعريفه لهذا النوع من التفسير فقال: " قال العلماء: من أراد تفسير الكتاب العزيز طلبه أولا من القرآن، فما أُجْمِل منه في مكان فقد فُسِّر في موضع آخر، وما اختصر في مكان فقد بُسِط في موضع آخر منه"[1]، ومن أمثلته التي أوردها الطبري في تفسيره: عن ابن عباس قوله: **{إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا}المعارج: 19**.قال: هو الذي قال الله:**{ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُ جَزُوعًا، وَإِذَا مَسَّهُ الخَيْرُ مَنُوعًا}إالمعارج:20-21**. ويقال: الهلوع هو الجزوع الحريص. وهذا في أهل الشرك"[2]. من خلال هذا المثال نتبيّن أنّ هذا النوع من التفسير هو بيان معاني القرآن بكلام من القرآن نفسه، وربط الآيات المتشابه لفظها أو معناها بعضها ببعض وتفسير بعضها ببعض.

[1]- المرجع السابق، ص853.

[2] -الطبري، تفسير الطبري، مرجع سابق، ج 26، ص314.

ب- تفسير القرآن بالسّنة: تفسير القرآن بالسنة هو المصدر الثاني من مصادر التفسير بالمأثور، وهو مصدر متفق عليه، وقد دلت على ذلك نصوص الكتاب والسنّة، قال تعالى مخاطبا نبيّه صلى الله عليه وسلم:**{ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِم وَلَعَلَّهُم يَتَفَكَّرُونَ}النحل:44.** قال السيوطي في بيان دور السنة في تفسير القرآن: " فإن أعياه ذلك طلبه من السنة: فإنّها شارحة للقرآن وموضحة له، وقد قال الشافعي –رضي الله عنه- :كل ما حكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو ممّا فهمه من القرآن. **قال تعالى:{إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتابَ بِالحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ}النساء:105**...في آيات أخر. وقال صلى الله عليه وسلم: "ألا إني أوتيت القرآن ومثّله معه" رواه أبو داود والترمذي...يعني: السنّة"[1]. ومن أمثلة هذا النهج في التفسير ما روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم في تفسيره للآية السابعة من سورة الفاتحة، "فعن عدي بن حاتم قال: سألت النّبي صلى الله عليه وسلم عن قول الله عزّ وجلّ **{غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِينَ} قال: {هم اليهود والنّصارى}** "[2].

تتعدّد الأمثلة التوضيحية غير أنّ المقصود من ذلك تبيين مكانة السنّة الشريفة وأهميتها في تفسير القرآن الكريم.

ت- تفسير الصحابة: عدّوا أقرب النّاس لإدراك معاني وأسرار القرآن الكريم لكونهم سمعوا القرآن من منبعه الصافي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانوا على أعلى قدر من الإيمان

[1] - السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، مرجع سابق، ص853.
[2] - الطبري، تفسير الطبري، مرجع سابق، ج01، ص186.

وسلامة الفطرة والسّليقة الأصيلة وفي هذا السياق نجد السيوطي يؤكد ما قلناه:" فإن لم يجده في السنة رجع إلى أقوال الصحابة فإنّه أدرى بذلك، لما شهدوه من القرائن والأحوال عند نزوله، ولما اختصوا به من الفهم التّام والعلم الصحيح والعلم الصالح، وقد قال الحاكم في المستدرك: إنّ تفسير الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل له حكم المرفوع"[1]. ويقصد بحكم المرفوع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يبيّن للصحابة رضوان الله عليهم جميعا معاني القرآن ويفسرها لهم، وإذا أُشكل على أحد منهم معنى سأله عنه فأوضحه له، "عن ابن مسعود رضي الله عنه أنّه قال: لمّا نزلت الآية الكريمة:**{الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ}الأنعام:82**. شقّ ذلك على المسلمين، وقالوا: أيّنا لا يظلم نفسه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليس ذلك إنما هو الشرك، ألم تسمعوا قول لقمان لابنه:**{يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} لقمان:13**. رواه البخاري ومسلم والترمذي"[2].

فالصحابة رضوان الله عليهم بشر، ليسوا بأنبياء ولا معصومين، وقد يصيبون ويخطئون، لكنّهم لمعايشتهم لنزول الوحي، وبيان النبي صلى الله عليه وسلم لهم ما يحتاجون إليه، ومعرفتهم للغة العرب التي نزل بها القرآن الكريم أتم المعرفة، ولرسوخهم في مقامات العلم والإيمان، فهم لذلك كلّه أقرب الناس لمعرفة المراد من كلام الله تعالى.

ث- تفسير التابعين: عدّ بعضهم أقوال التابعين حجّة لأنّهم أخذوها عن الصحابة رضي الله عنهم والذين أخذوا بدورهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعند جمهور العلماء لم

[1]- السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، مرجع سابق، ص854.
[2]- الطبري: تفسير الطبري، مرجع سابق، ج 11، ص494.

يعتبروها حجّة إلاّ إذا أجمعوا عليها. وقد جاء في كتب التفسير عن ابن جرير قال: "حدثنا أبو كريب، حدثنا طلق بن غمام، عن عثمان المكي، عن ابن أبي مُلَيْكة قال، رأيت مجاهدا سأل ابن عباس عن تفسير القرآن ومعه ألواحه، قال، فيقول له ابن عباس: اكتب، حتّى سأله عن التفسير كلّه. ولهذا كان سفيان الثوري يقول: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به"[1]. ومن أمثلة هذا النوع من التفسير ما ذكره البخاري في كتاب التوحيد :" قال أبو العالية: **{اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ }البقرة:29** ، أي ارتفع ، وقال مجاهد: استوى: علا على العرش"[2]. وقد أورد الطبري التفسير ذاته في كتابه.

ثانيا– التفسير بالرأي:

وهو الذي يعتمد فيه المفسر على الاستنتاج العقلي للأحكام والحكم من الآيات، وترجيح المحتملات ويجوز التفسير بالرّأي لمن كان عالما باللغة العربية والنحو والصرف والبلاغة وناسخ القرآن ومنسوخه وأسباب النزول والسنّة صحيحها وضعيفها وأصول الفقه، وأن يكون موهوبا، والموهبة لا تأتي إلا بالتقوى، فكلما كان الإنسان أكثر تقوى وخشية لله فتح الله عليه وعلّمه ما لم يعلم، وبارك في علمه، قال تعالى:**{واتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمْ اللهُ}البقرة:282**، وخير مثال نورده لمن أجازوا التفسير بالرأي وعملوا به الإمام ابن عاشور فهاهو يخصص المقدمة الثالثة من تفسيره في القول في صحة التفسير بغير المأثور ومعنى التفسير بالرأي ونحوه فيقول:" قلت: أراني كما حسبت أثبت ذلك وأبيحه، وهل اتّسعت التفاسير وتفنّنت مستنبطات

[1]- الزركشي، البرهان في علوم القرآن، مرجع سابق، ج11، ص 495.
[2]- الغنيمان عبد الله محمد، شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري، مكتبة الدار ، مدينة المنورة، ط1، 1985، ج1، ص 175.

معاني القرآن إلاّ بما رزقه الذين أتوا العلم من فهم في كتاب الله. وهل يتحقّق قول علمائنا(إن القرآن لا تنقضي عجائبه) إلاّ بازدياد المعاني باتساع التفسير؟ ولولا ذلك لكان تفسير القرآن مختصرا في ورقات قليلة"[1]. وقد صنّف هذا الأخير أقسام التفسير بالرأي إذ جعلها في قسمين:

أ- **الرأي المذموم:** هو ما كان باعثه الهوى ولا يصدر عن علم ولا عن دراية، وهو رأي خاطئ يحرّم الإقدام عليه في كافة العلوم الدينية مطلقا. قال عليه الصلاة والسلام: "من قال في القرآن بغير علم فليتبوّأ مقعده من النّار"رواه الترمذي .يقول ابن عاشور:"وإذ تقصينا مثارات التفسير بالرأي المذموم وبينا لكم الأشياء والأمثال، بما لا يبقى معه للاشتباه من مجال، فلا نجاوز هذا المقام ما لم ننبّهكم إلى حال طائفة التزمت تفسير القرآن بما يوافق هواها، وصرفوا ألفاظ القرآن عن ظواهرها بما سموه الباطن، وزعموا أنّ القرآن إنّما نزل متضمنا لكنايات ورموز عن أغراض، وأصل هؤلاء طائفة من غلاة الشيعة عرفوا عند أهل العلم بالباطنية فلقبوهم بالوصف الذي عرفوهم به"[2].

فالرأي المذموم هو تفسير لكلام الله عزّ وجلّ بغير علم ناشئ عن الهوى أو الجهل، وهو محرم شرعا، وفي هذا آيات كثيرة فيها نهي وتشنيع على القول على الله بغير علم **كقوله تعالى: { قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِيَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالبَغْيَ بِغَيْرِ الحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} الأعراف:33.**

[1]- ابن عاشورمحمد : التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج1، ص28.
[2]- المرجع نفسه، ص33.

ب- الرأي المحمود: هو ما كان مستندا إلى أصول عملية من اللغة والشرع، ووفق ضوابط دقيقة واضحة، وهو منهج جيّد فقد حثنا جلّ وعلا على تدبر آياته لقوله تعالى:**{أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}محمد:24.**

شروط التفسير بالرّأي المحمود:

1-الرجوع إلى المأثور الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم.

2-الرجوع إلى المأثور عن الصحابة وعدم مخالفتهم في التفسير.

3- الاعتماد على اللغة العربية وعدم صرف الآيات إلى ما لا يدلّ عليه المشهور من كلام العرب.

4- الاعتماد على مقتضى الكلام وما يدلّ عليه القانون الشرعي من خاص وعام ومطلق ومقيد وناسخ ومنسوخ.

4-أشهر كتب التّفسير بالمأثور والرّأي:

أ- أشهر كتب التفسير بالمأثور[1]:

- جامع البيان عن تأويل آي القرآن لابن جرير الطبري 224هـ/310هـ.
- الكشف والبيان عن تفسير القرآن للثعلبي ت 427هـ.
- معالم التنزيل للبغوي436هـ/516هـ.
- تفسير القرآن العظيم لابن كثير 710هـ/774هـ.

[1]- انظر الذهبي محمد حسين، التفسير والمفسرون، دار الحديث، القاهرة، مصر، ج1، ص. ص 180-218.

- الدر المنثور في التّفسير بالمأثور للسيوطي 849هـ/911هـ

ب- أشهر كتب التفسير بالرأي[1]:

- مفاتيح الغيب للرازي 544هـ/606هـ.
- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ت671هـ.
- غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري 321هـ/405هـ
- لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن 678هـ/741هـ
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي 1217هـ/1270هـ.

5-أهمية علم التفسير والحاجة إليه:

يعدّ علم التفسير من أنفع العلوم على الاطلاق، فهو يتعلق بكتاب الله تعالى، فعلم التفسير تُعرف من خلاله معاني القرآن الكريم، التي تساعد المسلم على الاهتداء للعمل الصالح ونيل رضى الله سبحانه وتعالى، والفوز بجناته وذلك بالعمل بأوامره التي وردت في كتابه الكريم، واجتناب نواهيه، وأخذ العبرة من قصصه، وتصديق أخباره، وبعلم التفسير يتبيّن الإنسان الحقّ من الباطل، ويزول أيّ لبس في الوصول إلى معاني الآيات ودلالاتها الحقيقيّة، ومن خلاله يصل الفقيه إلى استنباط الأحكام الشرعيّة، إذ يعتبر القرآن الكريم الدّليل التّفصيلي الأوّل للمعرفة والاستدلال على الأحكام الشرعيّة العمليّة. لقد خصّص السيوطي فصلا كاملا في كتابه الإتقان في علوم القرآن للحديث عن الحاجة إلى التفسير، إذ جاء في معرض حديثه: " وإنما احتيج إلى التفسير لما سيُذكر بعد تقرير قاعدة، وهي: أنّ

[1]- انظر المرجع السابق، ص 248.

كلّ من وضع من البشر كتابا فإنّما وضعه ليفهم بذاته من غير شرح، وإنّما احتيج إلى الشروح لأُمور ثلاثة:

أحدها: كمال فضيلة المصنّف، فإنّه لقوته العلمية يجمع المعاني الدقيقة في اللفظ الوجيز، فربّما عسُر فهم مراده، فقُصد بالشرح ظهور تلك المعاني الخفية، ومن هنا كان شرح بعض الأئمة تصنيفه أدلّ على المراد من شرح غيره له.

ثانيها: إغفاله بعض تتمات المسألة أو شروط لها، اعتمادا على وضوحها، أو لأنها من علم آخر، فيحتاج الشارح لبيان المحذوف ومراتبه.

ثالثها: احتمال اللفظ لمعان كما في المجاز والاشتراك، ودلالة الالتزام، فيحتاج الشارح إلى بيان غرض المصنف وترجيحه، وقد يقع في التصانيف ما لا يخلو عنه بشر من السهو والغلط، أو تكرار الشيء، أو حذف المبهم، وغير ذلك؛ فيحتاج الشارح للتنبيه على ذلك "[1].

تجدر الإشارة هنا أنّ القرآن الكريم إنما أنزل بلسان عربيّ مبين في زمن كانت الفصاحة هي السمة المميزة للسان العرب، وكانوا يعلمون ظواهره وأحكامه، ومع ذلك فقد ذُكرت آيات كثيرة في مواضع عديدة منه تحثّ المسلم على تدبّر القرآن تدبرا صحيحا، ومعرفة المطلوب منه والعمل بمقتضاه، ولأجل هذه الأسباب كان لزاما على المفسّر أن يكون عالما في أصول الفقه والقراءات، ضليعا بالنّاسخ والمنسوخ، بارعا قبل كل شيء في لغة العرب، متقنا للّسان العربي فهما ونطقا، إضافة إلى درايته الواسعة بعلم أسباب النزول.

[1]- السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، مرجع سابق، ص850.

6- فوائد أسباب النزول في الدرس التفسيري:

يعتبر العلم بأسباب النزول من أصول التفسير المهمّة، وركائزه المتينة التي لابدّ لمن رام التصدر لتفسير كلام الله تعالى أن يكون ملمّا بها، فعلم أسباب النزول من الأهميّة بمكان، وكيف لا يكون كذلك وهو بحث تاريخي يبيّن الأحوال والملابسات التي نزلت فيها كثير من آيات القرآن الكريم. لذا كان لهذا العلم فوائد عظيمة، والثمرات الجليلة، خلافا لمن يزعم أنّ لا فائدة تندرج حته، وفي هذا المعنى يقول الإمام السيوطي: " زعم زاعم أنّه لا طائل تحت هذا الفن، لجريانه مجرى التاريخ، وأخطأ في ذلك، بل له فوائد "[1].

فمن فوائد العلم التي عّدها الإمام لأسباب النزول[2] نذكر:

1. **معرفة الحكمة من التشريع، أو بعبارة أخرى: معرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم:** فشرع الله تعالى للأحكام المختلفة مبني على الحكمة، وعلم أسباب النزول يعين على معرفة الحكمة أو الحكم ممّا شرعه الله تعالى في كتابه، وفي ذلك نفع للمؤمن وغير المؤمن. أمّا المؤمن فيزداد إيمانا على إيمانه، ويحرص كلّ الحرص على تنفيذ أحكام الله، لما يتجلّى له من المصالح والمزايا التي نيطت بهذه الأحكام، ومن أجلها جاء هذا التنزيل، وأمّا الكافر فتسوقه تلك الحكم الباهرة إلى الإيمان إن كان منصفا، حين يعلم أنّ هذا التشريع الإسلامي قام على رعاية مصالح الإنسان، لا على الاستبداد والتحكم والطغيان.

ومن الحكم التي يمكن استفادتها:

[1]- السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، مرجع سابق، ص84.
[2]- انظر المرجع نفسه، ص ص84 -86.

- التيسير على الناس، ورفع الحرج عنهم.
- بيان رحمة الله تعالى بعباده المؤمنين.
- رعاية المصالح العامة للمجتمع الإسلامي.
- التّدرج في التشريع.
- تربية الله تعالى لهذه الأمة.

2. تخصيص الحكم به عند من يرى أنّ العبرة بخصوص السبب: ومثاله **قوله تعالى:{ وَالذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُم وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلاَّ أَنْفُسُهُم فَشَهَادَةُ أَحَدْهِمْ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ، وَالخَامِسَةُ أَنْ لَعْنَتُ اللهِ عَلَيهِ إِنْ كَانَ مِنَ الكَاذِبِينَ }النور:6،7.** هذه الآية نزلت في هلال بن أمية كما جاء الحديث عنه في مبحث سابق، فعند من يقول: إنّ العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ، يجعل حكم الملاعنة الذي نزل في هذه الآية خاصا بهلال بن أمية فقط، أمّا غيره، فتعدية الحكم إليه يكون بالقياس.

ومن الأمثلة كذلك، قوله تعالى في صدر سورة المجادلة:**{ قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ التِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا }المجادلة:1.** ففي ذكر سبب نزولها قال الطبري:" واختلف أهل العلم في نسبها واسمها، فقال بعضهم: خولة بنت ثعلبة ... وقال آخرون: هي خويلة بنت الدُليج. وكانت مجادلتها رسول الله صلى الله عيه وسلم في زوجها –وزوجها أوس بن الصامت– مراجعتها إيّاه في أمره، وما كان من قوله لها: أنت عليّ

كظهر أمي. ومحاورتها إياه في ذلك"[1]. فالحكم الذي ذكره الله تعالى في صدر هذه السورة خاص بخولة وأوس بن الصامت، وأما غيرهما فيعرف حكمه بالقياس، وبديهيّ أنّه لا يمكن معرفة المقصود بهذا الحكم ولا القياس عليه إلا إذا عُلِم السبب.

3. **معرفة أنّ سبب النزول لا يخرج عن حكم الآية إذا ورد مخصِّصا له:** فقد يكون اللفظ عاما ويقوم الدّليل على تخصيصه، فإذا عُرف السبب قصر التخصيص على ماعدا صورته، فاللفظ العام يبقى شاملا لسبب النزول بعد التخصيص، وذلك لأنّ دخول صورة السبب في اللفظ العام قطعي، فلا يجوز إخراجها بالاجتهاد الذي هو ظَنِّي، وقد نقل السيوطي[2] عن أبي بكر الباقلاني الإجماع على ذلك.

4. **فهم كلام الله تعالى عل الوجه الصحيح، وإزالة ما قد يقع من الإشكال أو الإلتباس في فهم بعض الآيات:** ولعلّ هذه الفائدة من أهم فوائد العلم بأسباب النزول، وفي هذا المعنى يقول الإمام الزركشي نقلا عن أبي الفتح القشيري:" بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني الكتاب العزيز "[3]. ولكي يتجلّى لنا المعنى المراد من هذه الفائدة أكثر، نورد المثال الذي أورده صاحب الإتقان " وقد أشكل على مروان بن الحكم معنى **قوله تعالى:{لاَ تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا}آل عمران:188**. وقال: لئن كان كلّ امرئ فرح بما أوتِيَ، وأحبّ أن يُحمَد بما لم يفعل معذّبا، لنُعَذَبَنّ أجمعون، حتى بيّن له ابن عبّاس أنّ الآية نزلت في أهل الكتاب حين سألهم النبي صلى الله عليه وسلم عن شيء فكَتَموه إيّاه، وأخبروه بغيره، وأروه

[1]- الطبري، تفسير الطبري، مرجع سابق، ج25، ص477.
[2]- السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، مرجع سابق، ص85.
[3]- الزركشي، البرهان في علوم القرآن، مرع سابق، ص26.

أنّهم أخبروه بما سألهم عنه، واستحمدوا بذلك إليه.أخرجه الشيخان"[1]. ومن هنا يتبيّن لنا أنّ معرفة سبب النزول يساعد على فهم الأيات.

5. **معرفة اسم من نزلت فيه الآية، وتعيين المبهم فيها:** من فوائد معرفة أسباب النزول معرفة من نزلت فيه الآية على التعيين حتّى لايشتبه، ومن أمثلة ذلك أنّ مروان قال أنّ عبد الرحمن بن أبي بكر هو الذي أنزل فيه:**{ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيهِ أُفٍّ لَكُمَا }الأحقاف:17**، فردّت عليه عائشة رضي الله عنها وبيّنت سبب نزولها، وقد جاء ذكر هذه الحادثة في كتاب البحر المحيط في معرض تفسير هذه الآية، إذ قال صاحبه: "وقد أنكرت ذلك عائشة فقالت وهي المصدوقة: لم ينزل في آل أبي بكر من القرآن غير براءتي، والله ما هو به، ولو شئت أن أسميه لسميته وصدت مروان...وكان عبد الرحمن من أفاضل الصحابة وسراتهم وأبطالهم وممن له في الإسلام غناء يوم اليمامة وغيره"[2]. فمعرفة اسم النازل فيه الآية وتحديد الغامض فيها حتى لا يشتبه بغيره وإلاّ اتهم البريء وأعفي المذنب.

6. **دفع توهم الحصر:** جاء ذكر هذه الفائدة في كتاب البرهان ممثلا لها بالآية الكريمة:**{ قُلْ لاَ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ } الأنعام:146**، فالآية قد تفيد بظاهرها الحصر، لكن سبب نزولها يدفع هذا التوهم، إذ نقل الزركشي عن الشافعي أنّه قال ما معناه [3] أنّ الكفار لما حرّموا ما أحل الله، وأحلوا ما حرم الله، وكانوا على المضادة والمحادة،

[1]- السيوطي، الإتقان في علوم القرآن ، المرجع السابق، ص85.
[2]- أبو حيان، تفسير البحر المحيط، مرجع سابق، ج 08، ص61.
[3]- انظر الزركشي، البرهان في علوم القرآن، مرجع سابق، ص27.

جاءت الآية مناقضة لغرضهم، فكأنّه قال: لا حلال إلاّ ما حرّمتموه، ولا حرام إلاّ ما حللتموه ... والغرض المضادة لا النفي والإثبات على الحقيقة، فكأنّه تعالى قال: لا حرام إلاّ ما أحللتموه من الميتة ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به، ولم يقصد حل ما وراءه، إذ القصد إثبات التحريم لا إثبات الحل.

7. **بيان أنّ القرآن نزل من عند الله جلّ وعلا:** فكون النبي صلى الله عليه وسلم إذا سئل عن شيء من أمور الغيب الماضي أو المستقبل ينتظر فترة ثم يجيب، أو تحدث واقعة فيأتيه بيانها وحكمها، كل هذا يدل دلالة قوية على أنّ هذا القرآن الكريم من عند عالم الغيب سبحانه وتعالى، وخير ما نستدل به في هذا المقام ما ذكره أبو حيان[1] في عرضه لأسباب نزول الآيات الأولى من سورة المنافقون، ومضمونها أنّ اثنين من الصحابة ازدحما على ماء، وهما عبد الله بن أبيّ ابن سلول وزيد بن أرقم ،فشجّ أحدهما الآخر، فقال عبد الله:(لاَ تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا) وقوله **(ليُخرجَنَّ الأَعزُ منها الأذلَ)**، وعنى الأعز نفسه وكلاما قبيحا سمعه زيد بن أرقم فنقل ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلام رسول الله عبد الله، إلاّ أنّ هذا الأخير حلف ما قال شيئا من ذلك، فاتّهم زيدا، فأنزل الله تعالى:**{ إِذَا جَاءَكَ المُنَافِقُونَ } إلى قوله { لاَيَعْمَلُونَ }** تصديقا لزيد وتكذيبا لعبد الله بن أبيّ.

8. **بيان عناية الله تعالى برسوله الكريم صلى الله عليه وسلم في الدفاع عنه:** من أمثلة هذه الفائدة آيات الإفك التي نزلت دفاعا عن شرف رسول الله صلى الله عليه وسلم،

[1]- انظر أبو حيان، تفسير البحر المحيط، المرجع السابق، ص267.

وتطهيرا له عمّا دنّسه به المنافقون والأفاكون، وتبرئة لأحبّ وأعزّ أزواجه إليه أمّ المؤمنين عائشة بنت الصديق رضي الله عنها.

9. ظهور عناية الله سبحانه بعباده في تفريج كربهم والتّخفيف عنهم: ومن أوضح الأمثلة على هذا الأمر، ما يتعلّق بسبب نزول آية التيمّم، فقد جاء في تفسير البحر المحيط[1] أنّ هذه الآية نزلت في قصّة عائشة رضي الله عنها حين فقدت العقد بسبب فقد المال، ومشروعية التيمّم، وكان الوضوء متعذّرا عندهم، وذلك في غزوة بني المصطلق، كما أنّها نزلت رخصة للرسول صلى الله عليه وسلم لأنّه كان لايعمل عملا إلاّ على وضوء، فأعلمه الله أنّ الوضوء إنّما هو عند القيام إلى الصلاة فقط، دون سائر الأعمال.

10. تيسير حفظ القرآن الكريم: فإنّ معرفة أسباب النزول والحوادث والملابسات والقرائن التي احتفت بنزول الآيات، كل ذلك ممّا يساعد على فهم كلام الله تعالى، وتيسير الحفظ، وترسيخ الأيات في ذاكرة الإنسان، يقول الإمام الزرقاني: " وذلك لأنّ ربط الأسباب بالمسببات، والأحكام بالحوادث، والحوادث بالأشخاص والأزمنة والأمكنة، كل أولئك من دواعي تقرّر الأشياء، وانتقاشها في الذهن، وسهولة استذكارها عند استذكار مقارناتها في الفكر، وذلك هو قانون تداعي المعاني المقرر في علم النّفس "[2].

إضافة إلى ما عدّدناه من فوائد معرفة أسباب النزول، يمكن أن نضيف فائدة أخرى [3] لعلّها من أهم فوائد أسباب النزول وهي تأكيد إعجاز القرآن الكريم، فنزول الوحي إثر أسباب

[1] - المرجع السابق، ج 03، ص449.
[2]- الزرقاني محمد عبد العظيم ، مناهل العرفان في علوم القرآن، تح فوّاز أحمد زمَرلي، دار الكتاب العربي، لبنان، الطبعة الأولى 1995، ج 01، ص113.
[3]- انظر ابن عاشور، التحرير والتّنوير، مرجع سابق، ج1، ص50.

تاريخيّة يطعن في دعوى اعتبار النّص القرآني من أساطير الأوّلين كما قال الطاهر ابن عاشور في مقدّمة تفسيره.

الفصل الثالث: مظاهر فعالية أسباب النزول في فهم القرآن الكريم عند المفسرين

إنّ ملاحظة السياق بنوعيه (النصي وغير النصي) أمر لا يختلف العلماء في موقعه وأهميته في دراسة النصوص وتحليلها، لأنّ إهمال السياق سيؤدي إلى الوقوع في الغلط والمغالطة، وإذا كان كلام العرب على الإطلاق لابدّ فيه من اعتبار السياق فإنّ كلام الله أولى. لذا ورد عن الفقهاء أنّه **لامعنى من دون سياق، ولا تأويل من دون اعتباره،** فمعرفته ضرورية لكلّ من يتعامل مع النصوص الشرعية، لأنّه يساعد على تفسير القرآن الكريم وتبيان مقاصده، وهذا ما يلزم الدارس معرفة السياق المقامي ووجوب التعامل به في فهم النصوص عامة، والنّص القرآني خاصّة، وذلك لأهميته في تحليل الخطاب. وتجدر الإشارة إلى أنّ السياق المقامي لم تقتصر أهميته على الوظيفة التفسيرية من خلال أسباب النزول، بل تتعداه إلى الوظيفة الترجيحية، التي تحيلنا إلى البعد الحجاجي الذي يكتسيه سبب النزول بالبحث عن الراجح من بين عدّة أقوال بالاستناد إلى دليل، ومن ثمّ تتمايز التفاسير بناءً على قدرة كلّ مفسّر الإقناعية ، وقد برزت أهمية السياق لدى المفسرين والعلماء في جانبين اثنين:

الجانب الأوّل: لفهم دلالة النّص كما سبق وأن أشرنا إلى ذلك في الفصل الأول تحت عنوان (السياق المقامي)[1] يستلزم وجود عناصر لغوية أو ما يعرف بالسياق المقالي، وعناصر غير لغوية وتتمثل في السياق المقامي، وهي قرائن الحال أو المقام والتي تتصل بالمتكلّم والمخاطَب وبالظروف الملابسة للخطاب، أي مجموع الظروف المحيطة بالكلام، ولهذه الأخيرة دور كبير في فهم دلالة النّص عامّة وفهم خطاب الشارع خاصّة وذلك في تفسير القرآن الكريم، إذ توجد علاقة

[1]- انظر الفصل الأول من هذا البحث (السياق المقامي)، ص27.

وثيقة بين السياق المقامي وعلوم القرآن وتحديدا علم أسباب النزول، ولعلّ أبلغ ما يذكر في هذا الصدد هو إقرار الشاطبي لمدى صلة أسباب النزول بمقتضيات الأحوال إذ قال : " معرفة أسباب التنزيل لازمة لمن أراد علم القرآن، والدليل على ذلك أمران : أحدهما: أنّ علم المعاني والبيان الذي يُعرف به إعجاز نظم القرآن، فضلا عن معرفة مقاصد كلام العرب، إنما مراده معرفة مقتضيات الأحوال : حال الخطاب من جهة المخاطِب والمخاطَب أو الجميع (...) ومعرفة الأسباب رافعة كلّ مشكل في هذا النمط، فهي من المهمات في فهم الكتاب ولابد، ومعنى معرفة السبب هو معنى معرفة مقتضى الحال. وثانيهما: هو أنّ الجهل بأسباب التنزيل موقع الشبه والإشكالات"[1].

الجانب الثاني: تظهر أهمية السياق في ترجيح التأويلات، إذ يطفو هذا الجانب على سطح الدراسة عندما تتعدّد التأويلات وتختلف التفسيرات. وسيأتي الحديث عن هذا بالتفصيل في ثنايا هذا الفصل من خلال استعراض نماذج تفسيرية لآيات كريمات للإمامين الجليلين الطبري وابن عاشور، مع الوقوف على ما رجّحاه من التأويلات الأكثر موافقة بين أسباب النزول وعلم المناسبة.

المبحث الأول: أسباب النزول والمقاصد القرآنية:

جرت عادة المفسرين أن يبدؤوا تفسيرهم للقرآن الكريم بذكر أسباب النزول، فتقدّم بحثهم فيه وأولوا عنايتهم الأكبر به، فالآيات الواردة على أسباب معيّنة وحوادث محدّدة لا تخرج عن سياق النظم القرآني من جهة الترتيب والإعجاز، وذلك سر بديع من أسرار الإعجاز القرآني، و آية

[1]- الشاطبي، الموافقات، تح محمد بن عبد الله دراز، دار المعرفة، لبنان، ط2 1975 ، ج4، ص146.

عظيمة من آيات البلاغة في نظم القرآن الكريم، وليتضح ذلك أكثر ننتقل إلى المعين الصافي من القرآن، ففيه البيان الشافي لما نحن بصدد تبيانه من دور أسباب النزول في تفسير القرآن الكريم.

1-الأنموذج الأول:

قال الله تعالى : { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُم شَهِيدًا، وَمَا جَعَلْنَا القِبْلَةَ الّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِتَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُم إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ } البقرة :143.

ذكر الواحدي في سبب نزول هذه الآية[1] عن ابن عباس أنّ رجالا من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلم قد ماتوا على القبلة الأولى، منهم أسعد بن زرارة وأبو أمامة أحد بني النجار، والبراء بن معرور أحد بني سلمة، وأناس آخرون جاءت عشائرهم فقالوا: يا رسول الله توفي إخواننا وهم يصلون إلى القبلة الأولى، وقد صرفك الله تعالى إلى قبلة إبراهيم، فكيف بإخواننا؟ فأنزل الله **{وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُم}**. ثم قال: **{قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ}** وذلك أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عليه السلام: " وددت أنّ الله تعالى صرفني عن قبلة اليهود إلى غيرها"، وكان يريد الكعبة لأنّها قبلة إبراهيم، فقال له جبريل : إنّما أنا عبد مثلك لا أملك شيئا، فسل ربّك أن يحولك عنها إلى قبلة إبراهيم. ثم ارتفع جبريل وجعل رسول

[1]- انظر الواحدي: أسباب النزول، مرجع سابق، ص24.

الله صلى الله عليه وسلم يديم النظر إلى السّماء رجاء أن يأتيه جبريل بما سأله، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وفي السياق ذاته قال الطبري: " حدثنا بشر بن معاذ قال، حدثنا يزيد، عن سعيد، عن قتادة قال: كانت القبلة فيها بلاء وتمحيص. صلّت الأنصار نحو بيت المقدس حولين قبل قدوم نبي الله صلّى الله عليه وسلم، وصلّى نبي الله صلى الله عليه وسلم بعد قدومه المدينة مهاجرا نحو بيت المقدس سبعة عشر شهرا، ثمّ وجهه الله بعد ذلك إلى الكعبة البيت الحرام، فقال قائلون من النّاس: **{مَاوَلاَّهُم عَنْ قِبْلَتِهِم الّتِي كَانُوا عَلَيْهَا}**، لقد اشتاق الرّجل إلى مولده. **قال الله عزّ وجلّ: {قُلْ لِلهِ المَشْرِقُ وَالمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}البقرة:142.** فقال أناس – لمّا صُرفت القبلة نحو البيت

الحرام – : كيف بأعمالنا التي كنا نعمل في قبلتنا الأولى، فأنزل الله عزّ وجلّ : **{وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُم}**"[1].

كما جاء في تفسير التحرير والتنوير ما يؤكد ذلك إذ : "روى البخاري عن البراء بن عازب قال: كان مات على القبلة قبل أن تحول رجال قتلوا لم ندر ما نقول فيهم، فأنزل الله تعالى : **{وما كان الله ليضيع إيمانكم}**. وفي قوله : (قتلوا إشكال) لأنّه لم يكن قتال قبل تحويل القبلة وسنبين ذلك، وأخرج الترمذي عن ابن عباس قال: لما وجه النبي إلى الكعبة قالوا يا رسول الله كيف بإخواننا

[1]- الطبري، تفسير الطبري، مرجع سابق، ج3، ص157.

الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس فأنزل الله : **{وما كان الله ليضيع إيمانكم}** الآية قال هذا حديث حسن صحيح"[1].

وهنا نلمح مدى الارتباط بين سبب نزول الآية والسياق الذي جاءت فيه، فالسياق يتحدّث عن تحويل القبلة وما سيتكلّم به السفهاء من اليهود والمنافقين حول السبب في تحويل القبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام، وذلك من أول قوله تعالى: **{سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النّاسِ}** إلى آخر الآية **{إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}**، ولقد جاءت الآية التالية لها من أول قوله تعالى: **{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا}** ممهدة موطئة لسبب النزول، حيث أشارت أولا إلى أنّ الانتقال من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام إنّما هو لوسطية الأمّة التي جمعت في توجهها نحو بيت المقدس قبلة السّابقين، وما حولت إليه من قبلة الخليل إبراهيم عليه السلام، وأنّ هذا التحويل إنّما الهدف منه معرفة من يتّبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه. يقول الإمام الطبري في تفسير **قوله تعالى: {وكذلك جعلناكم أمّة وسطا}:** "كما هديناكم أيّها المؤمنون بمحمد عليه السلام وبما جاءكم به من عند الله، فخصصناكم بالتوفيق لقبلة إبراهيم وملّته وفضلناكم بذلك على من سواكم من أهل الملل، كذلك خصصناكم ففضلناكم على غيركم من أهل الأديان، بأن جعلناكم أمّة وسطا"[2]. ويقصد هنا بالوسطية أي لا غلوَ ولا تقصير، إذ وصف الله تعالى أمّة وقوم محمد صلّى الله عليه وسلم بأنّهم (وسط) لتوسطهم في الدّين، فلا هم أهل غلوٍ غلو النّصارى الذين غلوا بالتّرهب، ولا هم أهل تقصير فيه تقصير اليهود الذين بدّلوا كتاب الله وقتلوا أنبياءهم وكذبوا على خالقهم، ولكنّهم أهل

[1]- ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج2، ص 25.
[2]- الطبري، تفسير الطبري، مرجع سابق، ص141.

توسط واعتدال فيه، وذلك ليكونوا شهداء لأنبياء الله ورسله بالبلاغ برسالاته، ويكون محمد صلى الله عليه وسلم شهيدا على أمّته بإيمانهم له وبما جاءهم به من عند الله[1]. وفي هذا الصدد يقول الطبري: " حدثنا أبو السائب قال حدّثنا حفص عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يُدعى بنوح عليه السلام يوم القيامة، فيقال له : هل بلغت ما أُرسلت به؟ فيقول : نعم. فيقال لقومه : هل بلغكم؟ فيقولون : ما جاءنا من نذير. فيقال له :من يعلم ذاك؟ فيقول : محمد وأمته. فهو **قوله : {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُم أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُم شَهِيدًا}البقرة:143**"[2].

ولما كان تحويل القبلة من البيت المقدس إلى البيت الحرام بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بسبعة عشر شهرا، وكان قد مات أناس صلوا إلى المسجد الأقصى في مكّة وفي الأشهر الأولى من المدينة، جاء السؤال عن حال هؤلاء الذين ماتوا قبل التحويل، وعن صلاتهم إ لى المسجد الأقصى[3]. فجاء سبب النزول هنا مدمجا مع الحدث والحوار في شأن تحويل القبلة، ملتحما مع الغرض والسياق تمام الالتحام، فجاء **قوله تعالى : {وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُم إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ}** بعد ما عرض من الحوار السابق.

[1]- انظر المرجع السابق، ص142.
[2]- المرجع نفسه، ص146.
[3]- انظر المرجع نفسه، ص157.

وهنا نلمح مدى الإعجاز في سياق الآية، فالتعبير هنا عن عدم ضياع الإيمان شامل لمن مات من أهل القبلة قبل التحويل، ولمن هو حي وسامع وقت التحويل. ولذلك تنوعت عبارات العلماء والمفسرين في تأويل الإيمان في هذه الآية الكريمة فهناك من أوّلها بالصلاة كالطبري حيث قال :

" القول في تأويل **قوله تعالى : {وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُم}**. قال أبو جعفر : قيل عني بـ (الإيمان) في هذا الموضع : الصلاة"[1]. وعلى نهج الطبري جاء تفسير ابن عاشور للإيمان حيث قال: " والإضاعة إتلاف الشيء وإبطال آثاره وفسّر الإيمان على ظاهره، وفسّر أيضا بالصلاة نقله القرطبي عن مالك (...) فإن فُسّر الإيمان على ظاهره كان التقدير ليضيع حق إيمانكم حين تزلزله وساوس الشيطان عند الاستقبال إلى قبلة لا تودونها، وإن فُسّر الإيمان بالصلاة كان التقدير ما كان الله ليضيع فضل صلاتكم أو ثوابها، وفي إطلاق اسم الإيمان على الصلاة تنويه بالصلاة لأنها أعظم أركان الإيمان"[2].

فالتعبير بنفي ضياع الإيمان هنا شامل لمن اتّبع الرسول من الأحياء على هدي ويقين بدون شك أو تردّد وسلك سبيله، وشامل لمن مات قبل التحويل حيث صلى إلى بيت المقدس. فجاء سبب النزول للآية غير مفصول أو منقطع عن نظمها ومعناها وسياقها، حيث مهّد أولا بالحديث عن السفهاء وما سيقولونه، وموقفهم إزاء تحويل القبلة وما قالوه، والغرض من هذا التحويل، بيان حال أهل الإيمان، وما كتب لهم من الثبات عند التحويل، ويشمل أيضا حال من مات قبل هذا التحويل، وأنّ صلاته غير ضائعة عند الله.

[1]- الطبري، تفسير الطبري، المرجع السابق، ص167.
[2]- ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج2، ص25.

ولقد ختمت الآية الكريمة بما يناسب السياق السابق، فجاءت الفاصلة مرتبطة بالغرض تمام الارتباط، فحين **قال سبحانه وتعالى: {إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ}** ، ذكر الله الرأفة[1] والرحمة بعد الحديث عن تحويل القبلة، وعدم ضياع صلاة من صلّى إلى المسجد الأقصى وضمان أجر المؤمنين الصادقين رأفة ورحمة، كما أن تحويل القبلة كشف المنافقين الذين كبر عليهم تحويل القبلة **{وَ إِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الّذِينَ هَدَى}** ، فكان ذلك رأفة ورحمة بالمؤمنين حيث كشف لهم أعداءهم، وتحويل القبلة رأفة ورحمة بالنبي صلّى الله عليه وسلم حيث كان يقلب وجهه في السّماء راجيا أن يحول إلى البيت الحرام لما كان اليهود يقولون: يخالفنا ويتبع قبلتنا، وكما أنّها قبلة أبيه إبراهيم عليه السلام. فذكر الرأفة والرحمة هنا مما هو مناسب للسياق تمام المناسبة، لأنّ الرأفة هي المبالغة في الرحمة، ولذلك قدّمت على (رحيم)، ويؤكد الإمام ابن عاشور هذا المعنى إذ قال:" الفرق بين الرأفة والرحمة أنّ الرأفة مبالغة في رحمة خاصة وهي دفع المكروه وإزالة الضر **كقوله تعالى: {وَ لاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ} النور:2**"[2]أي لا ترأفوا بهما في إقامة الحد عليهما على ما ألزمكم به. وصفة رؤوف التي وردت في الآية الكريمة جاءت على وزن فعول ومعناها المبالغة في الرحمة، فالرحيم أعم والرؤوف أبلغ، ولذلك جمع بينهما لإثبات المعنيين وتوكيدا لمدلول أحدهما بمدلول الآخر بالمساواة أو الزيادة فبدأ بالأبلغ وختم بالأعم. كما أنّه ذكر الناس قبل الرأفة والرحمة ليفيد العموم، أي بالناس الذين هم أعم من المؤمنين وغيرهم ممن ينسون شكر

[1]- انظر الطبري، تفسير الطبري، المرجع السابق، ص ص171-174.
[2]- ابن عاشور، التحرير والتنوير، المرجع نفسه، ص26.

النعم وهم بين الهدى والفتنة. لذلك جاء بالرأفة بعد ذلك، أي يرحم الله من يشاء ممن وصل إليه بعمل صالح رأفة منه به وعناية له ليشكره[1].

فالرؤوف والرحيم مما يناسب المعنى ويلتحم مع الغرض من الآية تمام الالتحام. وهنا جاء سبب النزول متفقا مع سياق الحال والذي يمكن تحديد عناصره في التالي:

أولا : الزمان : بعد سبعة عشر شهرا من هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم.

ثانيا : المكان : المدينة المنورة.

ثالثا : الخطاب : موجّه لمن جاؤوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه عن إخوانهم الذين توفوا وهم يصلون إلى القبلة الأولى.

رابعا : الأحداث السابقة لنزول الآية : قول اليهود والسفهاء حول سبب تحويل القبلة.

خامسا : الأحداث المصاحبة للآية :

أ- موقف النّاس من تحويل القبلة.

ب- بيان حال أهل الإيمان واتّباع الرسول صلّى الله عليه وسلم.

ت- كشف حال المنافقين الذين كبر عليهم تحويل القبلة.

[1]- انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير، المرجع نفسه، ص26

من كل ما تقدّم نستنتج أنّ سبب النزول ساهم بشكل كبير في تفسير الآية الكريمة وإيصال المعنى العام، وهذا مظهر من مظاهر الإعجاز والدّقة والإبداع في النظم القرآني.

2-الأنموذج الثاني:

قال الله تعالى: {إِنَّ الَّذِي يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِم ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُم فِي الآخِرَةِ وَلَا يُكَلِمُهُمْ اللهُ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} آل عمران:77.

اختلف أهل التفسير والتأويل في سبب نزول هذه الآية، فهناك من قال بأنها نزلت في الأشعث بن قيس، وهاهو الطبري يورد ذلك في تفسيره إذ قال: " حدثني أبو السائب سلم بن جنادة قال، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي وائل، عن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من حلف على يمين هو فيها فاجر ليقتطع بها مال امرئ مسلم، لقى الله وهو عليه غضبان، فقال الأشعث بن قيس، فيّ والله كان ذلك: كان بيني وبين رجل من اليهود أرض فجحدني، فقدّمته إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألك بينة؟ فقلت: لا. فقال لليهودي: احلف. قلت: يا رسول الله، إذا يحلف يذهب مالي. فأنزل الله عزّ وجل: **{إِنَّ الَّذِي يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِم ثَمَنًا قَلِيلاً}**"[1].

وقد أثبت الرواية ذاتها ابن عاشور في التحريروالتنوير إذ قال: " ففي البخاري عن أبي وائل ، عن عبد الله بن مسعود، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" من حلف يمين صبر ليقتطع بها مال امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان " فأنزل الله تصديق ذلك: **{إِنَّ الَّذِي يَشْتَرُونَ**

[1]- الطبري، تفسير الطبري، مرجع سابق، ج6، ص529.

بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِم ثَمَنًا قَلِيلاً} الآية فدخل الأشعث بن قيس وقال: ما يحدثكم به أبو عبد الرحمن. قلنا: كذا وكذا. قال: فيّ والله أنزلت كانت لي بئر في أرض ابن عم لي، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: بينتك أو يمينه. قلت : إذن يحلف. فقال رسول الله: من حلف على يمين صبر حديث"[1].

وقال بعضهم الآخر أنها نزلت في أحبار من أحبار اليهود، وقد أشار الطبري إلى ذلك حيث قال: " حدثنا القاسم قال، حدثنا حسين قال، حدّثني حجاج عن ابن جريج عن عكرمة قال: زلت هذه الآية : **{إِنَّ الَّذِي يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِم ثَمَنًا قَلِيلاً}** في أبي رافع، وكنانة بن أبي الحقيق، وكعب بن الأشرف، وحيّ بن أخطب"[2].

كما أن الطبري لم يغفل عن ذكر رواية أخرى لسبب النزول إذ جاء في متن تفسيره: " وقال آخرون بما حدثنا به محمد بن المثنى قال: حدثنا عبد الوهاب قال: أخبرني داود بن أبي هند، عن عامر: أن رجلا أقام سلعته أول النهار، فلما كان آخره جاء رجل يساومه، فحلف لقد منعها أول النهار من كذا وكذا ، ولولا المساء ما باعها به، فأنزل الله عزّ وجل : **{إِنَّ الَّذِي يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِم ثَمَنًا قَلِيلاً}**"[3].

وهنا يلاحظ أن هناك أكثر من سبب لنزول الآية. فبعض المفسرين كما سبق جعلها في أحبار اليهود وفي خيانتهم للعهد الذي أخذه الله عليهم من اتباع محمد صلى الله عليه وسلم، وبعضهم جعلها في المنفق سلعته بخداع المسلمين، وبعضهم جعلها في قصة الأشعث وخصمه السابقة.

[1]- ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج3، ص259.
[2]- الطبري، تفسير الطبري، المرجع السابق، ص528.
[3]- المرجع نفسه، ص533.

ولا مانع من تعدد سبب النزول في تلك الحالة كما هو معلوم ومقرر عند العلماء، بل إنّ تعدد سبب النزول في تلك الحالة مظهر من مظاهر الإعجاز في النظم فوق الإعجاز الأول الخاص بسبب واحد، حيث إن نزول الآية على أسباب متعددة[1] مع انسجامها مع السياق والتحامها في النظم وارتباطها بالمناسبة من أجلّ مظاهر الإعجاز في القرآن الكريم.

3-الأنموذج الثالث:

قال الله تعالى: {وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا} الإسراء:80.

اختلف أهل التأويل في الفتنة التي كاد المشركون أن يفتنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بها، إذ جاء في تفسير الطبري روايتان مختلفتان. أمّا الأولى فوردت على لسان جعفر عن سعيد : " قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلم يستلم الحجر الأسود، فمنعته قريش، وقالوا : لا ندعه حتّى يلمّ بآلهتنا، فحدّث نفسه وقال : ما عليّ أن ألِمّ بها بعد أن يدعوني أسلم الحجر، والله يعلم أني لها كاره، فأبى الله فأنزل الآية"[2]، أما الرواية الثانية فذكر بشر عن قتادة أنّ قريشا خلوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة إلى الصبح يكلّمونه ويفخمونه ويسوّدونه، ويقاربونه، فقالوا : إنّك تأتي بشيء لا يأتي به أحد من النّاس، وأنت سيّدنا وابن سيّدنا، ومازالوا به حتى كاد أن يقاربهم في بعض ما يريدونه، ثمّ منعه الله تعالى وعصمه من ذلك، فأنزل الله تعالى هذه الآية : **{وَلَوْلاَ أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً}الإسراء:74.** وإذا نظرنا كذلك في **الآية 76** من السورة

[1]- انظر الفصل الثاني من هذا البحث في أنواع أسباب النزول (تعدد الأسباب والمنزّل واحد)، ص55.
[2]- الطبري، تفسير الطبري، المرجع السابق، ج18، ص14.

ذاتها في قوله تعالى : **{وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَ يَلْبَثُونَ خِلاَفَكَ إِلاَّ قَلِيلاً}**، علمنا أنّ الإخراج هنا كان من مكة إلى المدينة[1].

ويؤكد هذا التأويل الإمام ابن عاشور في تفسيره إذ يقول: "والمعنى : كادوا أن يخرجوك من بلدك. وذلك بأن همّوا بأن يخرجوه كرها ثم صرفهم الله عن ذلك ليكون خروجه بغير إكراه حين خرج مهاجرا عن غير علم منهم لأنّهم ارتأوا بعد زمان أن يبقوه بينهم حتى يقتلوه. والتعريف في (الأرض) تعريف العهد، أي أرضك وهي مكة"[2].

وعليه **فمدخل الصدق** الواردة في **الآية 80** التي هي موضع التأويل هو المدينة المنورة، ومخرج الصدق هو مكّة المكرمة.

فالآية الكريمة **{وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُونَكَ مِنَ الأَرْضِ}** من المقدّمات الضرورية لتوضيح آية **{وَقُلْ رَبِّ}** فإنّه يجب توضيحها لتضعنا في السياق الصحيح.

فعناصر سياق مقام هذه الآية هي :

أولا : المخاطب : هو النبي صلّى الله عليه وسلم.

ثانيا : المكان : هو مكة المكرمة على أرجح الأقوال والمدينة المنورة على أقوال أخرى، فهناك من قال مدخل الصدق الشام ومخرج الصدق المدينة المنورة[3].

[1]- انظر المرجع السابق، ص19.
[2]- ابن عاشور، التحرير والتنوير، المرجع السابق، ج15، ص185.
[3]- انظر الطبري، تفسير الطبري، المرجع السابق، ص19.

ثالثا : الزمان : قبيل العقبة الأولى على أرجح الأقوال، وبعد الهجرة على قول آخر[1].

رابعا : الأحداث المصاحبة لنزول الآية :

أ- ذكر قتادة أن أهل مكة همّوا بإخراج النبي صلّى الله عليه وسلم من مكة، ولكن الله كفّهم عن إخراجه حتى أمره بالهجرة، ولم يلبثوا بعده إلا فترة من الزمن حتى أهلكهم الله بعذاب عاجل يوم بدر. وقد أكد ابن عباس ذلك إذ قال أن النبي صلى الله عليه وسلم كان بمكة ثم أُمِر بالهجرة[2].

ب- في رواية أخرى ذكر محمد بن عبد الأعلى، عن المعتمر بن سليمان عن أبيه أنّ بعض اليهود حسدت مكانة النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة،" فقالوا :إن الأنبياء إنّما بعثوا بالشام، فإن كنت نبيا فالحق بها، فإنك إن خرجت إليها صدقناك وآمنا بك، فوقع ذلك في قلبه فأنزل الله تعالى آية: **{وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا}الإسراء:76**"[3].

وتحديد دلالة لفظ (الأرض) في الآية يحتمل معنيين تبعا لمكان نزول الآية، فإن كانت السورة مدنية فالأرض هي المدينة المنورة ويتبع ذلك أن واو الجماعة في (يستفزونك) هم اليهود، وإذا كانت مكية فالمراد بـ (الأرض) مكة والواو في (ليستفزونك) هم أهل مكّة.

ولمّا:

[1]- انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير، المرجع السابق، ص186.
[2]- انظر الطبري، تفسير الطبري، المرجع السابق، ص54.
[3]- المرجع نفسه، ص19.

- كان السياق قبل آية الهجرة يتحدّث عن أذية المشركين للنبي صلى الله عليه وسلم، وعن كيدهم ليفتنوه في دينه وذلك بالرجوع إلى أسباب النزول.
- الاضطراب الحاصل في نقل رواية محمد بن عبد الأعلى، حيث أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يرحل إلى الشام، وقد رجّح الإمام الطبري نفي هذه الرواية في تفسيره حين قال: " وأشبه الأقوال بالصواب في تأويل ذلك : قول من قال : معنى ذلك : وأدخلني المدينة مدخل صدق، وأخرجني من مكة مخرج صدق"[1].
- تتبع سياق الآيات النازلة قبل الهجرة، حيث وعده ربّه بأن يقيمه مقاما محمودا في الآخرة **{عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا}الإسراء:79**. ناسب أن يسأل أن يكون ذلك حاله في كل مقام يقومه، وفي هذا إشارة إل أن الله مخرجه من مكة إلى المدينة[2].
- مراعاة أسباب النزول التي بيّنت أن السياق هو تهيئة الحال لهجرة النبي صلى الله عليه وسلم، وبمراعاة كل ذلك يتأكد أن الأرض التي أخرج منها هي أرض مكة وليست المدينة المنورة.
- الكيد والمكر بالنبي صلى الله عليه وسلم كانا في مكة، والأمر بسؤاله بتفويض أمره إلى ربّه، ورضاه بما يختاره له جاء بعد ذلك، والمعنى : قل يا محمد سائلا ربّك متضرعا إليه أدخلني في مكان وزمان وظروف حسنة وأخرجني كذلك[3].

إذا نظرنا إلى ما تقدّم فإنّ المراد بمدخل الصدق هو المدينة لأنه يدخل إليها على حق ويقين وبصيرة، ومخرج الصدق هو مكة لأنّه يخرج منها لذلك أيضا.

[1]- المرجع السابق، ص58.
[2]- انظرابن عاشور، التحرير والتنوير، المرجع نفسه، ص186.
[3] انظر المرجع نفسه، ص187.

وقد أمر الله نبيه بسؤاله التوفيق في الدخول إلى مكان بعد الخروج من مكان كيلا يضرّه أن يستفزه أعداؤه من الأرض ليخرجوه منها، مع ما فيه من المناسبة مع قوله تعالى : **{عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا}**، وفي هذا تلميح إلاهي إلى أن الله تعالى مخرجه من مكة مرسله إلى المدينة، وظاهر هذه الآية أنّها نزلت قبيل العقبة الأولى التي كانت مقدّمة للهجرة النبوية إلى المدينة المنورة[1].

وتجدر الإشارة ههنا إلى أهمية السياق في ترجيح أكثر التأويلات منطقية وقبولا، ويظهر ذلك في قول الطبري : " وإنما قلنا: ذلك أولى بتأول الآية، لأن ذلك عقيب قوله وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلا .وقد دللنا فيما مضى على أنه عنى بذلك أهل مكة، فإذ كان ذلك عقيب خبر الله عما كان المشركون أرادوا من استفزازهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ليخرجوه عن مكة، كان بيّنا، إذ كان الله قد أخرجه منها، وأن قوله له : وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق. أمر منه بالرغبة إليه في أن يخرجه من البلدة التي همّ المشركون بإخراجه منها وأخرجه الله منها مخرج صدق، وأدخله البلدة التي نقله الله إليها مدخل صدق"[2]

من خلال من كل ما تقدّم يمكن أن نستنتج عناصر سياق الحال في النقاط التالية :

[1]– انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير، المرجع السابق، ص186

[2]– الطبري، تفسير الطبري، المرجع السابق، ص 58.

أولا : الزمان : قبيل العقبة الأولى التي كانت مقدّمة لهجرة النبي صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة.

ثانيا : المكان : مكة المكرمة حيث بدأت مدعوة النبي صلى الله عليه وسلم.

ثالثا : الخطاب : موجّه للنبي صلى الله عليه وسلم.

رابعا : الأحداث السابقة لنزول الآية الكريمة : اشتداد الكيد من المشركين للنبي صلى الله عليه وسلم.

خامسا : الأحداث المصاحبة لنزول الآية الكريمة :

أ- تآمر مشركي مكة على النبي صلى الله عليه وسلم ليفتنوه في دينه حتى كاد يركن إليهم شيئا قليلا.

ب- استفزاز قريش للنبي صلى الله عليه وسلم ليخرجوه من بلده.

ت- سعي قريش الحثيث لدى النبي صلى الله عليه وسلم وحوارهم معه للاستجابة لمطالبهم.

وفي الأخير يجب أن نشير إلى أن تحديد الكلمات في الآية الكريمة يقتضي أن يكون المخرج هو الهجرة من مكة المكرمة والمدخل هو الدخول إلى المدينة المنورة، وهذا تخصيص للمعنى العام للفظ الدخول والخروج، ولولا سياق المقام لما عرفنا معناهما الواردين في الآية الكريمة وهذا بمراعاة السياق العام لسبب النزول.

4- الأنموذج الرابع:

قال الله تعالى : {وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُم وَلاَ أَبْصَارُكُم وَلاَ جُلُودُكُم وَلَكِن ظَنَنْتُم أَنَّ اللهَ لاَ يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ} فصلت:22.

سبب نزول الآية ما أخرجه الشيخان وأحمد والترمذي وغيرهم، "عن عبد الله بن مسعود قال : كنت مستترا بأستار الكعبة، فدخل ثلاثة نفر، ثقفيان وقرشي، أو قرشيان وثقفي، كثير شحوم بطونهما، قليل فقه قلوبهما، فتكلّموا بكلام لم أفهمه، فقال أحدهم: أترون أن الله يسمع ما نقول؟ فقال الرجلان، إذا رفعنا أصواتنا سمع، وإذا لم نرفع لم يسمع، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذكرت له ذلك، فنزلت هذه الآية: **{وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُم وَلاَ أَبْصَارُكُم وَلاَ جُلُودُكُم}** إلى آخر الآية"[1].

هذه الآية من سورة فصلت وهي من السور المكية، لها صلة وثيقة بسبب النزول لمن تأمل، فهؤلاء المشركون الذين كانوا يستخفون بكلامهم عند بيت الله، ويتجاذبون أطراف الحديث حول سماع الله لكلامهم، غافلين أنّ الله سبحانه فوق علمه بما يسرون وما يعلنون سيجعل عليهم شاهدا من جوارحهم وجلودهم بما كانوا عاملين مستدلين في ذلك بقوله تعالى في سورة النور الآية 24**{يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}** ، وقوله :**{اليَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} يس: 65**، وكذا الآية

[1]- الطبري، تفسير الطبري، مرجع سابق، ج23، ص460.

السابقة للآية موضع البحث:**{وَقَالُوا لِجُلُودِهِم لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُم أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} فصلت: 21.**

جاءت الآية في هذا السياق كاشفة عمّا في نفوس هؤلاء من ظنون حول علم الله بأعمالهم وكلامهم وعمّا يدور في خلجات صدورهم من شكوك حول سماع الله لكلامهم وحديثهم. وممّا هو معلوم أن الآيات التي نزلت على أسباب محدّدة لا تقتصر عليها في ذاتها، وإنما هي عظة وعبرة للناس في كل زمان ومكان، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما وضحنا ذلك في الفصل الثاني تحت عنوان (أنواع أسباب النزول)[1]، فالآية شاملة لكل من كان على حال هؤلاء ممن يظن هذا الظن حول علم الله بما أسّر من كلامه وأخفى. وظاهر السياق حين نربط الآية بسبب النزول يوحي بأنّها في موضوع مختلف عمّا قبلها وما بعدها، ولكن عند التأمل الدقيق يتضح لنا مدى الارتباط والتناسب بينها وما جاورها من الآيات. فالسورة مكية كما سبق وأن ذكرنا، وسبب النزول فيها يوضح موقفا لأناس من المشركين في ذلك الوقت قبل أن يسلم بعضهم، والآية تحق على من مات منهم كافرا مثل ربيعة بن أمية بن خلف. فيجوز أن يكون نزولها صادف الوقت الموالي لنزول التي قبلها ، ويجوز أن تكون نزلت في وقت آخر وأنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بوضعها في موضعها هذا لمناسبة ما في الآية التي قبلها من شهادة سمعهم وأبصارهم عليهم[2].

[1]- انظر الفصل الثاني من هذا البحث (خصوص السبب وعموم الصيغة)، ص56.
[2]- انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج24، ص ص270-271.

وأيا كان الأمر فالآية مناسبة لحال هؤلاء المشركين الجاحدين لعلم الله بأعمالهم. ونلمح هنا في نظم الآية مدى الإعجاز والبيان حيث أبرزت وجسدت لنا ما يدور في نفوسهم من ظنون، وما يظنونه حول علم الله بأعمالهم التي كانوا لها عاملين.

ومن هنا اختلفت وجهات نظر المفسرين من ناحيتين : **الأولى** : من المخاطِب في الآية؟ والثانية : معنى الآية. أمّا عن الأولى : فلقد ذكر بعض المفسرين[1] في قوله تعالى :**{وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ}**، يحتمل أن يكون من كلام الجلود ومحاورتها، ويحتمل أن يكون من كلام الله لهم، أو من كلام ملك يأمره الله تعالى. أمّا **الثانية** : فهي ما المعنى؟، فلقد اختلف أهل التأويل فيه، حيث قال ابن كثير : " أي تقول لهم الأعضاء والجلود حين يلومونها على الشهادة عليهم : ما كنتم تتكتمون منا الذي تفعلونه، بل كنتم تجاهرون الله بالكفر والمعاصي، ولا تبالون منه في زعمكم لأنّكم لا تعتقدون أنّه يعلم جميع أفعالكم"[2]. أمّا أبو حيان فقال في معرض تفسيره للآية الكريمة: " أي وما كنتم تمتنعون، ولا يمكنكم الاختفاء عن أعضائكم والاستتار عنها بكفركم ومعاصيكم ... وعبّر قتادةعن تستترون بتظنون، أي وما كنتم تظنون أن يشهد ، وهذا تفسير من حيث المعنى لا من حيث مرادفة اللفظ"[3]

والراجح في الأقوال ما أورده الطبري في تفسيره إذ قال: "وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: معنى ذلك : وما كنتم تستخفون، فتتركوا ركوب محارم الله في الدنيا حذار أن

[1]- انظرالمرجع نفسه، ص 271.
[2]- ابن كثيرأبو الفداء، تفسير القرآن العظيم، تح: محمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، ج7، ص172.
[3]- أبو حيان، البحر المحيط، مرجع سابق ، ج9، ص281.

يشهد عليكم سمعكم وأبصاركم اليوم. وإنما قلنا ذلك أولى الأقوال في ذلك بالصواب، لأن المعروف من معاني الاستتار الاستخفاء"[1].

ونلمح هنا سرا لطيفا في تخصيص الحواس المذكورة بالذكر (السمع – البصر – الجلود) دون باقي الحواس، وقد أشار إلى ذلك الرازي فقال : " الحواس خمسة : السمع، والبصر، والشم، والذوق، واللمس. ولا شك أنّ آلة اللمس هي الجلد، فالله تعالى ذكر هنا الحواس (السمع، والبصر، واللمس) وأهمل ذكر نوعين وهما (الذوق، والشم)، لأنّ الذوق داخل في اللمس من بعض الوجوه، ولأن إدراك الذوق إنما يتأتى بأن تصير جلدة اللسان والحنك مماسة لجرم الفم، فكان هذا داخلا فيه. فبقي حس الشم، وهو حس ضعيف في الإنسان، وليس لله فيه من تكليف ولا أمر ولا نهي"[2] .

ورجوعا إلى الآية محل الدراسة والبحث فلقد جاءت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديث تفسّر هذه الآية، ومن ذلك ما أخرجه أحمد والحاكم " حدثنا مجاهد بن موسى، قال : حدّثنا يزيد، قال : أخبرنا الجريريّ، عن حكيم بن معاوية عن أبيه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال : "تجيئون يوم القيامة على أفواهكم الفدام، وإنّ أوّل ما يتكلم من الآدميّ فخذه وكفّه" وتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية "[3].

[1]- الطبري، تفسير الطبري، مرجع سابق، ج23، ص459.
[2]- الرازي، التفسير الكبير، مرجع سابق، ج27،ص117.
[3]- الطبري، تفسير الطبري، المرجع السابق، ص456.

وروى مسلم عن أنس رضي الله عنه قال : ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم حتى بدت نواجذه، ثمّ قال: " ألا تسألوني ممّ ضحكت؟ " قالوا : ممّ ضحكت يا رسول الله ؟ قال:" عجبت من مجادلة العبد ربّه يوم القيامة " قال:" يقول: يا ربّ أليس وعدتني أن لا تظلمني؟ قال: فإنّ لك ذلك. قال: فإني لا أقبل عليّ شاهدا إلا من نفسي. قال: أوليس كفي بي شهيدا، وبالملائكة الكرام الكاتبين؟" قال: " فيختم على فيه، وتتكلم أركانه بما كان يعمل" قال: " فيقول لهن: بُعدًا لَكُنّ وسحقا، عنكن كنت أجادل" رواه مسلم .

من خلال ما سبق يتضح أنّ دلالة الآية الكريمة تتفق مع أسباب النزول، وترتبط به ارتباطا وثيقا، كما أنها تشمل كل من كان على شاكلة هؤلاء المشركين الشاكين في علم الله بهم، ولقد بينت الأحاديث السابقة التي سقناها ما يشهد لعموم الآية في كل من كان على شاكلة هؤلاء الكافرين الغافلين، وفي الحديث الأخير الذي رواه مسلم تفصيل للحوار الذي سيدور بينهم وبين ربهم يوم القيامة، وطلبهم لشاهد عليهم من أنفسهم وهذا بعد خروجهم من الأجداث ووقوفهم للحساب بين يدي الله عزّ وجل[1]، وفي ذلك تحقيق لقوله تعالى : **:{وَقَالُوا لِجُلُودِهِم لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُم أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} فصلت: 21.**

ونلمح كيف يمتد الإعجاز القرآني، وتتسع الآية في معناها ومضمونها لتشمل الأحياء من المشركين في وقت نزول الآية، وتشمل من يأتي بعدهم ممن سلك سبيلهم، وما يقال لهم يوم القيامة وما يجيبون به. وذلك مظهر من مظاهر العظمة في نظم القرآن، حيث تتضمن الحديث

[1]– انظر المرجع السابق، ص455.

عمن مضى، ومن سيأتي يوم القيامة، فضلا عما حوته الآية من تصوير دقيق للحوار الذي سيدور بين هؤلاء الكافرين وبين جلودهم يوم الحساب. فتأمل كيف ربط السياق القرآني المعجز بين الماضي والحاضر والمستقبل كأنهم رأي العين، وكيف طابق الموضوع وسبب النزول هنا اسم السورة (فصلت) تمام المطابقة. وليتضح ذلك أكثر سنورد هنا أهم أغراض السورة ومقاصدها كما ذكرها ابن عاشور[1] في بداية تفسيره للسورة :

- القرآن معصوم من أن يتطرقه الباطل.
- الحديث عن إعراض المشركين عنه وصممهم.
- إبطال مطاعن المشركين في القرآن.
- تذكيرهم بأنه نزل بلغتهم فلا عذر لهم أصلا في عدم الانتفاع بهديه.
- زجر المشركين وتوبيخهم على كفرهم بخالق السموات والأرض.
- إنذارهم بما حل بالأمم المكذبة من عذاب الدنيا.
- وعيدهم بعذاب الآخرة.
- شهادة السمع والبصر والجلود عليهم يوم القيامة.

5- الأنموذج الخامس:

قال الله تعالى : {قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدُ، اللهُ الصَمَدُ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدُ}

الإخلاص:1-4.

[1]- انظر ابن عاشور، التحرير والتنوير، المرجع السابق، ج24، ص ص 228،229.

ذُكر أن سبب نزول سورة الإخلاص كانت جوابا للمشركين إثر سؤالهم عن نسب الله، حيث جاء في تفسير الطبري ما يؤكد هذه الرواية إذ قال :" حدّثنا أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبيّ بن كعب، قال: قال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم انسب لنا ربك. فأنزل الله : **{ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدُ، اللهُ الصَمَدُ }**"[1].

وفي موضع آخر قال أنها نزلت من أجل مسألة اليهود، فنجده يورد حديث ابن اسحاق عن محمد عن سعيد قال: " أتى رهط من اليهود النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا محمد، هذا الله خلق الخلق، فمن خلقه؟ فغضب النبي صلى الله عليه وسلم حتى انتقع لونه، ثم ساورهم غضبا لربّه، فجاءه جبريل عليه السلام فسكّنه، وقال: اخفض عليك جناحك يا محمد. وجاءه من الله جواب ما سألوه عنه. قال: يقول الله : **{قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدُ، اللهُ الصَمَدُ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدُ}**"[2].

أما ابن عاشور فقد أشار إلى اختلاف أسباب النزول بين المفسرين بسبب خلافهم إن كانت السورة مكّية أو مدنية، حيث قال: " روى عبيد العطار عن ابن مسعود وأبو يعلى عن جابر بن عبد الله أن قريشا قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم انسب لنا ربك، فنزلت : **{ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدُ، اللهُ الصَمَدُ }** إلى آخرها فتكون مكية. وروى صالح عن ابن عباس أن عامر بن الطفيل وأربد بن ربيع (أخا لبيد) أتيا النبي صلى الله عليه وسلم فقال عامر: إلام تدعونا؟ قال: إلى الله. قال: صفه لنا أمن ذهب هو، أم من فضة، أم من حديد، أم من خشب؟ (يحسب

[1]- الطبري، تفسير الطبري، مرجع سابق، ج27، ص775.
[2]- المرجع نفسه، ص777.

لجهله أن الإله صنم كأصنامهم من معدن أو خشب أو حجارة) فنزلت هذه السورة، فتكون بذلك مدنية لأنهما ما أتياه إلا بعد الهجرة"[1].

غير أن الراجح في الأقوال والروايات أنها مكية على حسب الجمهور وابن عاشور إذ أكّد ذلك بقوله:" والصحيح أنها مكية لأنها جمعت أصل التوحيد وهو الأكثر فيما نزل من القرآن بمكة، ولعل تأويل من قال أنها نزلت حينما سأل عامر بن الطفيل وأربد، أو حينما سأل أحبار اليهود: أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ عليهم السورة، فظنها الراوي من الأنصار نزلت ساعتئذ أو لم يضبط الرواة عنهم عبارتهم تمام الضبط"[2].

ومن خلال ما سبق يتضح لنا أن سورة الإخلاص والتي وردت تسميتها كذلك في أكثر المصاحف وفي معظم التفاسير وذلك لاختصار الاسم وجمعه معاني السورة لأن فيها تعليم الناس العبادة لله تعالى أي سلامة الاعتقاد من الشرك بالله [3]، يتفق هذا المعنى والمقصد مع سبب النزول ويرتبط به ارتباطا وثيقا وهذا قبس من إعجاز النظم القرآني.

[1]- ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج30، ص 395.
[2]- المرجع نفسه، ص396.
[3]- انظر المرجع نفسه، ص 394.

المبحث الثاني: البعد الحجاجي لأسباب النزول:

من مظاهر توظيف الطبري لأسباب النزول حجاجيا فيما استعرضناه آنفا من نماذج قصد الإقناع، ما ورد في الأنموذج الثالث (الآية 80 من سورة الإسراء) حيث قال :

" وأشبه هذه الأقوال بالصواب في تأويل ذلك: قول من قال : معنى ذلك: وأدخلني المدينة مدخل صدق ، وأخرجني من مكة مخرج صدق. وإنما قلنا: ذلك أولى بتأول الآية، لأن ذلك عقيب قوله **{وإن كادوا ليست فزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلا}** .وقد دللنا فيما مضى على أنه عنى بذلك أهل مكة، فإذ كان ذلك عقيب خبر الله عما كان المشركون أرادوا من استفزازهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ليخرجوه عن مكة، كان بيّنا، إذ كان الله قد أخرجه منها، وأن قوله له : **{وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق}**. أمر منه بالرغبة إليه في أن يخرجه من البلدة التي همّ المشركون بإخراجه منها وأخرجه الله منها مخرج صدق، وأدخله البلدة التي نقله الله إليها مدخل صدق"[1]

إذ يتضح هنا جليا أن الإمام الطبري قد وظف الدرس الحجاجي بشكل واضح وجلي، إذ استعرض عدة أقوال وأراء لرواة ومفسرين لأسباب نزول الآية الكريمة،وتحديدا في مدخل الصدق ومخرجه، إن كان المدينة المنورة ومكة أم الشام والمدينة المنورة، ثم رجّح أكثر الأقوال ملاءمة وانسجاما مع السياق المقامي ، وهذا هو لب لباب الدرس الحجاجي.

[1]– الطبري، تفسير الطبري، مرجع سابق،ج18، ص 58.

- كما نجد الطبري يستعين بالحجاج في موضع آخر وتحديدا في **الآية 22 من سورة فصلت** كما سبق وأن استعرضنا أسباب نزولها عند كل من الطبري وابن عاشور في المبحث الأول من هذا الفصل[1] إذ يقول: "وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: معنى ذلك : وما كنتم تستخفون، فتتركوا ركوب محارم الله في الدنيا حذار أن يشهد عليكم سمعكم وأبصاركم اليوم. وإنما قلنا ذلك أولى الأقوال في ذلك بالصواب، لأن المعروف من معاني الاستتار الاستخفاء"[2].

وهنا يتبيّن لنا ويتضح أن الطبري رغم تقدمه إلاّ أن اعتمد على إحدى أبعاد التداولية ألا وهو الحجاج رغم عدم تأصيله للمصطلح المتعارف عليه في الدراسات الحديثة.

- و كآخرمثال نستعرضه في هذا المقام للبعد الحجاجي لأسباب النزول ما جاء على لسان ابن عاشور في ترجيحه مكية سورة الإخلاص بالاعتماد على أسباب النزول[3] إذ قال: "والصحيح أنها مكية لأنها جمعت أصل التوحيد وهو الأكثر فيما نزل من القرآن بمكة، ولعل تأويل من قال أنها نزلت حينما سأل عامر بن الطفيل وأربد، أو حينما سأل أحبار اليهود: أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ عليهم السورة، فظنها الراوي من الأنصار نزلت ساعتئذ أو لم يضبط الرواة عنهم عبارتهم تمام الضبط"[4].

---

[1]– انظر الفصل الثالث (الأنموذج 4)، ص 105.

[2]– الطبري، تفسير الطبري، مرجع سابق، ج23، ص459.

[3]–انظر الفصل الثالث من هذا البحث (الأنموذج الخامس)، ص114.

[4]– ابن عاشور، التحرير والتنوير، مرجع سابق، ج30، ص396.

يتضح هنا جليا اعتماد ابن عاشور على البعد الحجاجي في ترجيحه لرأي من الآراء المختلفة بالاعتماد على الدليل والحجة بالإضافة إلى مقصدية السورة كما سبق وأن أشرنا إلى ذلك في سابقا.

خاتمة

خاتمة

نحمد الله تعالى على توفيقه لنا لإنجاز هذه المذكرة الموسومة بـ (الأبعاد التداولية في تفسير القرآن الكريم أسباب النزول أنموذجا) حتى وصلنا بها إلى نهايتها لا إلى غايتها، وقد حرصنا على مدار إنجازها على جمع مادتها وقراءتها وترتيبها، وقد تمكنا من رصد وإثبات النتائج الآتية:

- موضوع السياق في الفكر الغوي الغربي يقوم على مجموعة من العناصر المسؤولة على توجيه دلالة النص، وهذه العناصر إما تكون لفظية لغوية وهي ما يعرف بالسياق المقالي، أو تكون غير لفظية وهي ما يعرف بالسياق المقامي.

- السياق في التراث اللغوي العربي لم يبتعد كثيرا عن مفهومه الحديث، بل تنوعت أسسه ومبادئه، وتنوعت مصطلحاته بين النظم، والمقام، والحال، والسياق، والمناسبة وما إلى ذلك ، وإن لم يخرجه ذلك عن إطاري سياق اللغة وسياق المقام.

- علم السياق القرآني (أسباب النزول) علم عظيم المنزلة، رفيع القدر، وهو من أهم ما يوصل للفهم الصحيح لكتاب الله.

- يلزم مراعاة الظروف الحافة بالنّص للتوجيه السليم للمعاني.

- تتكامل جميع العناصر غير اللغوية من أجل توضيح مقاصد الخطاب القرآني.

- قد يرد السياق مقويا للرواية الواردة في سبب نزول الآية، وقد يتفق مع بعض الروايات الواردة في الآية ذاتها، وقد يختلف مع بعضها الآخر.

- إنّ الجهل بأسباب النزول أو تجاهلها يوقع في الخلاف ويبعد عن فهم المراد.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم برواية حفص.

01- ابن تيمية، التسعينية، تح محمد بن إبراهيم العجلان، مكتبة المعارف، الرياض، السعودية، خلود العموش، الخطاب القرآني، دراسة في العلاقة بين النص والسياق، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1 2008.

02- ابن القيم الجوزية، بدائل الفوائد، تح علي بن محمد عمران، دار عالم الفوائد، مكة السعودية، ط1 1997.

03- ابن جني، أبو الفتح عثمان، الخصائص، تح محمد علي النجار، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، ط4 1990.

04- ابن عاشور محمد الطاهر، التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، د ط 1997.

05- ابن فارس أحمد بن زكرياء، معجم مقاييس اللغة، تح عبد السلام محمد هارون، بيروت، لبنان، ط1 1991.

06- ابن منظور محمد أبو الفضل، لسان العرب، المكتبة التوقيفية، القاهرة، مصر، د ط ت،.

07- ابن هشام عبد الملك، شذور الذهب في معرفة كلام العرب، تح محمد محي الدين، عبد الحميد، المكتبة العسكرية، دط 2011.

08- أبو الفرج محمد أحمد، المعاجم اللغوية في ضوء دراسات علم اللغة الحديث، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط1 1966.

09- أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، تح عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1 1993.

010- أوستين، نظرية الأفعال الكلامية، تر عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، دط 1991.

011- البخاري محمد بن إسماعيل، صحيح الأدب المفرد، تح محمد ناصر الدّن الألباني، مكتبة الدليل، المملكة العربية السعودية، ط4 1997.

012- بسام الجمل، أسباب النزول، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1 2005.

013- بعلي حفناوي، التداولية البراغمتية الجديدة، خطاب ما بعد الحداثة، ملتقى علم النص، مجلة اللغة والأدب، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، جانفي 2006، العدد17.

014- بلبع عيد، التداولية البعد الثالث في سيميوطيقا موريس، مجلة فصول، القاهرة، ربيع 2005، العدد 66.

015- بن قندوز هواري، التداولية النصية مقاربة في فهم الخطاب وتأويله، بحث مقدم لنيل شهادة الدكتوراه في لسانيات الخطاب، إش أحمد يوسف، جامعة وهران، الجزائر، 2009.

016- بودرع عبد الرحمان، أثر السياق في فهم النص القرآني، الإحياء، مجلة فصلية تصدرها الرابطة المحمدية للعلماء، المغرب، 2005، العدد 25.

017- بوقرة نعمان، المدارس اللسانية المعاصرة، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، دط 2003.

018- تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط1 1994.

019- الجاحظ أبو عثمان عمرو، البيان والتبيين، تح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخامجي، مصر، ط4 1975.

020- جاك موشلير- آن ريبول، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، تر سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت لبنان، ط1 2003.

021- جاك موشلير- آن ريبول، القاموس الموسوعي للتداولية، تر عز الدين المجدوب وآخرون، دار سيناترا، تونس، دط 2010.

022- جون مارك فيري، فلسفة التواصل، تر عمر مهيبل ، دار العربية للعلوم، لبنان، ط1، 2006.

023- الذهبي محمد حسين، التفسير والمفسرون، دار الحديث، القاهرة، مصر، دط ت.

024- الرازي محمد فخر الدين، التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط2 دت.

025- رزقي حورية، الأحاديث القدسية من منظور اللسانيات التداولية، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجيستر في علوم الإنسان، إش بشير إبرير، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، 2006.

026- الزرقاني محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، تح فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي، لبنان، ط1 1995.

027- الزركشي بدر الدين محمد، البرهان في علوم القرآن، تح أحمد بن علي، دار الغد الجديد، مصر،ط1 2015.

028- الزركشي، البحر المحيط، في أصول الفقه، تح عبد القادر عبد الله العاني، دار الصفوة، مصر، ط2 1992.

029- الزمغشري محمود بن عمر، أساس البلاغة، تح محمد باسل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1 1998.

030- السيوطي جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، تح فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، د ط 2004.

031- السيوطي جلال الدين، لباب النقول في أسباب النزول، مؤسسة الكتب الثقافية، لبنان،ط1 2002.

032- الشاطبي، الموافقات، تح محمد بن عبد الله دراز، دار المعرفة، لبنان، ط2 1975.

033- الشافعي محمد إدريس، الرسالة، تح أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1 1972.

034- شنان قويدر، التداولية في الفكر الأنجلو ساكسوني.المنشأ الفلسفي والمآل اللّساني، ملتقى علم النّص، مجلة اللغة والأدب، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، جانفي 2006، العدد17.

035- شهري، استراتجية الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، ط1 2004.

036- صحراوي مسعود، التداولية عند العلماء العرب، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1 2005.

037- الطبري أبو جعفر محمد، تفسير الطبري، دار الجوزي، القاهرة، مصر، ط1 2009.

038- طه عبد الرحمان، في أصول الحوار وتجديد علم الكلامة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، دط 2005.

039- عكاشة محمود، التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة، دار النشر للجامعات، مصر، ط2 2011.

040- العمري محمد، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، إفريقيا الشرق، المغرب، دط 1999.

041- الغنيمان عبد الله محمد، شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري، مكتبة الدار، المدينة المنورة، ط1 1985.

042- فرنسوا أرمينيكو، المقاربة التداولية، تر سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، الرباط، المغرب، ط1 1986.

043- فضل صلاح، بلاغة الخطاب وعلم النص، دار الكتاب، لبنان، ط1 2004.

044- فيليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، تر صابر حباشة، دار الحوار، سورية، ط1 2007.

045- القطان مناع خليل، مباحث في علوم القرآن، مكتبة المعاف للنشر والتوزيع، مصر، ط3 2000.

046- لوصيف الطاهر، التداولية اللسانية، ملتقى علم النّص، مجلة اللغة والأدب، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، جانفي 2006، العدد17.

047- مختار عمر أحمد، علم الدلالة، عالم الكتب، مضر، ط5، مصر، 1998.

048- مرتاض عبد الملك، تداولية اللغة بين الدلالة والسياق، مجلة اللسانيات، مركز البحوث العلمية والتقنية لترقية اللغة العربية، الجزائر، 2005، العدد 10.

049- ناصر إبراهيم، فلسفاتالتربية، دار وائل للتوزيع والنشر، عمان، الأردن، ط2 2004.

050- نحلة محمود أحمد، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، مصر، ط1 2002.

051- النيفر نور الدين، فلسفة اللغة واللّسانيات، مؤسسة أبو وجدان للطبع والنشر، تونس، ط1 1993.

052- الواحدي أبو الحسن علي، أسباب النزول، تد عصلم بن عبد المحسن حميدان، دار الإصلاح، الدمام، المملكة العربية السعودية، ط2 1992.

053- Stephen.c.Levenson, Pragmatics, Cambridge, university .press, third Edition

054- Petit la rousse, libraire, la rousse, paris, France, Edition, 1980.

055- http://www.shomosnews.com/?p=63457

فهرس المحتويات

العنوان	الصفحة
شكر وعرفان	
إهداء	
مقدمة	أ
الفصل الأول: التداولية بين الدرس الغربي والعربي	
المبحث الأول: مفهوم التداولية في الدراسات العربية	
1-تعريف التداولية:	**10**
2-علاقة التداولية بالعلوم الأخرى	14
1.2- علاقة التداولية بالفلسفة	14
2.2- علاقة التداولية بالعلوم المعرفية	15
3.2- علاقة التداولية بتحليل الخطاب.	17
4.2- علاقة التداولية باللسانيات	17
5.2- علاقة التداولية بالمستويات اللغوية	18
3-نشأة التداولية وتطورها	19
4-أنواع التداولية	22
5-أهمية التداولية وأهدافها	23
أهمية النظرية السياقية	27
المبحث الثاني: مفهوم التداولية في الدراسات العربية	
1-تعريف التداولية.	28
2-جذور التداولية في التراث العربي	31
1.2- عند البلاغيين	31
2.2- عند النحاة	32
3- تجليات مرتكزات التداولية في الفكر العربي	33
1.3- السياق المقامي	33
2.3-أنواع السياق	36

3.3- أهمية السياق	36
4-السياق عند الأصوليين	37
5-العلاقة بين النص والسياق	39
الفصل الثاني: أسباب النزول الماهية والوظيفة التفسيرية.	
تمهيد	44
المبحث الأول: ماهية أسباب النزول	
1-تعريف أسباب النزول	46
2-تاريخ علم أسباب النزول	50
3-أنواع أسباب النزول	55
4-الفرق بين سبب النزول والمناسبة	61
المبحث الثاني: فاعلية أسباب النزول في الدرس التفسيري	
1-تعريف تفسير القرآن	66
2-الفرق بين التفسير والفهم والتأويل	70
3-أنواع التفسير ومناهجه	75
4-أشهر كتب التفسير بالمأثور والرأي	81
5-أهمية علم التفسير والحاجة إليه	82
6-فوائد أسباب النزول في الدرس التفسيري	84
مظاهر فعالية أسباب النزول في فهم القرآن الكريم عند المفسرين	
المبحث الأول: أسباب النزول والمقاصد القرآنية	
1-الأنموذج الأول	94
2-الأنموذج الثاني	101
3-الأنموذج الثالث	103
4-الأنموذج الرابع	109
5-الأنموذج الخامس	
المبحث الثاني: البعد الحجاجي لأسباب النزول	117

خـاتمـة	120
قائمة المصادر والمراجع	122